د. محمد الحوادي

الديمقراطية المحسوبة

ائتلافات والتفافات

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

الديمقراطية المحسوبة

ائتلافات والتفافات

د. محمد الجوادى

الديمقراطية المحسوبة

ائتلافات وائتلافات

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1441 هـ - 2020 م

ISPN - ردمك
978-625-7895-81-1
Aldumuqratıya almahsupa

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

للطباعة والنشر والتوزيع

إهداء

إلى الصديق الكريم
الدكتور طارق أنيس

هذا الكتاب

نجتهد في هذا الكتاب في أن نقدم للقارئ مجموعة من المقاربات غير التقليدية لقضايا التحول الديمقراطي التي ارتبطت بثورات الربيع العربي، وهي قضايا متعددة ومتشعبة، وقد بدا بعض القضايا في صور مستعصية على الفهم أحيانًا و مستعصية على الحل أحيانًا أخرى، ومستعصية على التوافق في بعض ثالث من الأحيان، وليس من شك في أنه يمكن إرجاع كل هذه الصعوبات إلى التشوهات غير الديمقراطية والتشوهات غير المنطقية، ومن قبل هذه وتلك التشوهات « غير الإنسانية»، التي واكبت ثم لازمت فترات الحكم العسكري وديكتاتورياته المتواصلة .

وقد حاولت أن أناقش الصواب والباطل في هذه القضايا؛ من خلال مناهج متعددة، فلجأت إلى أسس التفكير العلمي وما تعنيه في الفكر الواسع من مفاهيم وممارسات التركيب والتحليل والتشريح والبحث العلمي كلا على حدة، قاصدًا بهذا تغذية العقلية العربية بدلالات أوسع لاصطلاحات شائعة يقتصر كتابها على حصرها في مجالات محصورة كما يخضعونها لسلطان محدداتهم، بينما هي مفاهيم انفتاحية بطبعها .

وجاء تقديمي لهذه المفاهيم ومعانيها الاصطلاحية متآزرا مع تفريقي الذي أنا حريص عليه بين معنيي الحرية والديمقراطية، ومع تعريفي المفصل للأسلوب الناصري في إدارة الموارد والاقتصاد، وهو الأسلوب الذي لا يزال مسيطرًا على روح الأداء الحكومي؛ جالبا للمصاعب والإحباطات التي لا تنتهي، وممثلا عائقا أمام التنمية الحقيقية المستقلة. وهو تعريف نابع من الصورة الكلاسيكية في علوم الاقتصاد .

وأردفت كل هذه الفصول بمجموعة من الدراسات والمقالات عن الصياغة المثلى لتكوين البرلمان، وعن العناصر التي أتصورها جوهرية الوجود في أي برنامج انتخابي رئاسي .

وضفرت هذا كله بفكرتين ملهمتين من التاريخ، متمنيا على الله أن نحظى برئيس يحظى

بسمات شخصية المأمون وانجازاته العلمية والفلسفية، متخوفا في الوقت ذاته من النمط الدون كيشوتي من الشخصيات الذي كان بارزا بوضوح بين مرشحي الرئاسة المتاحين حين نشرت هذه المقالا ت، و متسائلًا في الوقت ذاته عن إمكانية وجود أديب مصري قادر على أن يصور الدقائق في حياتنا الاجتماعية على نحو مافعل ديستوفسكي العظيم الذي كاد أن يجد نظيرًا له بصورة أو بأخرى بين مرشحي الرياسة .

ثم تعمدت أن ألمس بسرعة صورة الزعامة في عهد ثورة ١٩٥٢ في ثلاثة فصول، فتحدثت عن معاملة الرئيسين محمد نجيب وعبد الناصر للزعيم مصطفى النحاس باشا، كما قارنت بين شخصيتي عبد الناصر والبغدادي كنموذجين لرجال الثورة، ثم عرضت تصويرًا للصورة المهلهة من الشخصيات التي يختارها أمن الدولة ويفرضها.

وأوردت أيضًا مجموعة من المقالات النقدية لكتابات نشرمعظمها بعد الثورة ونشر البعض الآخر قبيلها مباشرة، وهي مقالات وثيقة الصلة بموضوع هذا الكتاب من حيث تناولت رؤى الآخرين، موازنة بينها وبين الواقع من ناحية، وبينها وبين المجاز من ناحية أخرى، وكأني بهذا لا أقف عند حدود ما ارتأيت، وإنما أضم أصوات الآخرين إلى صوتي وصولًا إلى الحقيقة المنشودة .

أكتب هذه المقدمة بعد أن انتهيت من قراءة الكتاب في صورته النهائية، وأنا والحمد لله، في أقصى وأقسى حالات الاغتراب والاستيحاش والاعتلال والضيق والملل، احاول الصبر فأتجلد، وأحاول الانتصار فأتعذب، وأحاول العمل فأتحرر من سجن الجسد وتبقى الروح في سجن اشد، ولولا فضل الله السابغ؛ ما استطعت أن أواصل حياة ولا حضورًا ولا كتابة .

وإني لأرجو للقارئ أن يسعد بهذا الكتاب كما سعدت، وأن يسعد بقراءته على نحو ما سعدت بكتابته، وأن يستمتع بقراءة ما يحتويه على نحو ما سبقته أنا إلى هذا الاستمتاع الذي لاشك فيه.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يهديني سواءالسبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه، وأن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت..

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامي، وأن يحفظ عليَّ عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن ينعم عليَّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وحسن عبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعّمني، وحبب في خلقه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي، وهي بالطبع وبالتأكيد كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله سبحانه وتعالى وحده الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادي

الباب الأول

مداخل غير تقليدية

الفصل الأول

الحرية والديمقراطية
مرحلتان متتاليتان

(١)

بعد عدد من المحاضرات والندوات والمداخلات التلفزيونية وجدتني دون تخطيط أكتشف أن من الضروري أن أشرح للساسة قبل الجماهير، أن الديمقراطية مرحلة تالية للحرية، وأن أقول لهم إنهم إذا كانوا سيدرسون ويمارسون الحرية في سنة أولى، فلا بد أن ينتقلوا إلى سنة ثانية، ليدرسوا ويمارسوا الديمقراطية، ولا يمكن لهم وهم في السنة الثانية أن يطالبوا بأن يدرسوا نفس المنهج الذي درسوه في السنة السابقة، سنة أولى، كذلك فإنه لا يمكن للإنسان المرتقي بنفسه أن يظل في سنة أولى طوال الوقت، ومعنى هذا إنه لابد لهم من التخلي عن تكرار منهج مرحلة الحرية و المطالبة بالحرية في كل شيء، والدخول إلى مرحلة من مراحل الالتزام بإتفاق يقيد الحرية، بعض الشيء، وهو الديمقراطية أو الإتفاق الديمقراطي.

شرحت هذا المعنى بألفاظ وألحان كثيرة؛ لأن الناس كانوا متعطشين له، ومن حسن الحظ أن كثيرًا من الجماهير استوعبت المعنى تمامًا وبدأت ترده، بل بدأت تردد المثل الصارخ الذي قلت فيه إن الديمقراطية تعني أن يتنازل قرابة نصف المجتمع عن رأيه (إذا كانوا ٤٩٪) لصالح النصف الذين ارتأوا الرأي الذي حاز على ٥١٪، وكنت أضرب المثل بالاستفتاءات السويسرية المتتالية التي تجريها الحكومة هناك على قضايا جزئية لتحسم الاختيار بالطريقة الديمقراطية، بدلا من أن تظل القضية معلقة ومتجددة وتتحول حسب ما قلته من مشكلة إلى إشكالية.

(٢)

ذات مساء كانت قناة تليفزيونية تذيع جزءًا من هذا الذي قلته في وقت متأخر، وإذا بالمجمعي الفذ العظيم الأستاذ مصطفى حجازي عضو مجمع الخالدين يتصل بى بعد انتهاء ما أذيع ليقول لي في تواضع العلماء إنه فهم معاني لم يكن يتصور أن علم السياسة نفسه ألم بها من لغة التفريق الدقيق بين معاني الحرية والديمقراطية والتنمية والتقدم والارتقاء على نحو ما ضربت المثل بالمراحل الخمسة المتتالية في ذلك الجزء الذي أعادت فضائية من الفضائيات إذاعته، بعد أن وجدت من متابعيها أن المناقشات تدور حول جزئية واحدة .

أردف الاستاذ مصطفي حجازي، وهو العالم الذي أحاط بعلم متن اللغة بأفضل من غيره أنه لابد لي من أن أجد طريقة لتضمين هذه المقارنات في معاجم اللغة التي يصدرها المجمع، لا في المعاجم المتخصصة فحسب، بل إنه قال إن مثل هذا التفريق لابد أن يكون متاحًا حتى في مادة الحرية في المعجم الوسيط والكبير (والوجيز إن أمكن).

(٣)

قلت لأستاذنا الكبير إن تفريق ألفاظ المعاني بهذه الطريقة من الممكن أن يوقف نمو العلوم الإنسانية القابلة للتغير والتطور، فرد عليّ : بالعكس إن هذه الطريقة هي الطريقة التي ستوفر على هذه العلوم الإنسانية أعوامًا طويلة من المناقشات والجدل والضياع .

استحلفني الأستاذ الجليل أن أضع هذه الفكرة نصب عيني، وألا أتكاسل عن بذل الجهد فيها .. راجعت أستاذنا بأن الفكرة بسيطة بل بدهية، قال، وهو كعادته يحسن الظن بي إن أحدًا غيري لن يفعل ذلك، وإن أحدًا غيري لن يكون مؤهلًا لهذه المهمة بهذه الطريقة، وقال أستاذنا ضمن ما قال : إن كثيرين من أرباب التعريفات على مدى التراث العربي كانوا ينقلون تعريف السين من تعريف الصاد ثم يحورون التعريف دون انتباه إلى أن الأفيد هو ذكر هذا التحوير بدلًا من النقل .

الفصل الثانى

البسطاء يفهمون أكثر من الأيدولوجيين

(١)

في أدبيات علوم الاقتصاد صورة مشهورة للتفريق بين الشيوعية والرأسمالية، وقد تطورت هذه الصورة، لتصوغ تعريفات مختلفة للاشتراكية والنازية والفاشية وكل مذهب أو فكرة اقتصادية من خلال النموذج الكلاسيكي، وبالطبع فإن الروايات التي تتحدث عن هذه الفروق تختلف في طريقة التصوير وطريقة الرواية لأنها بالطبع تظل متأثرة بالحب والكره والترويج والتنفير، لكنها في النهاية تبقى في إطار التصويرات القادرة على تقريب المعنى المراد حتى لو لم يكن المعنى المصور أو المرسوم هو الحقيقة.

(٢)

طبقًا لأكثر الروايات شيوعًا فإننا نستطيع أن نقول : إن الموضوع في كل هذه اللوحات او الحالات فلاح ممارس ورب أسرة ويمتلك بقرتين :

• تأتي الشيوعية فتأخذ منه البقرتين نهائيا، وتنزع عنه ملكيتهما، وتجعله في المقابل موظفًا عند الدولة الشيوعية التي تعطيه اللبن مجانًا وخدمات أخرى .

• أما الاشتراكية فتأخذ منه إحدى البقرتين وتترك له الأخرى ليشرب من لبنها وليعيش من إنتاجها .

• أما الرأسمالية الرحيمة، فتدفعه دفعًا إلى القبول بفكرة أن يحتفظ ببقرة واحدة و يبيع البقرة الثانية ويشتري بثمنها ثورًا ليتم التزاوج فينشأ قطيع من البقر، وربما احتاج إلى قرض بالفائدة (من بنك) فيظل الفلاح يدفع كل مكسبه أقساطًا للقرض و فوائد له.

• أما الرأسمالية المتوحشة، فتأخذ إحدى البقرتين تحت أي مسمى، وتترك للفلاح بقرة واحدة في مجتمع استهلاكي ميال للترف، ومع ازدياد متطلباته النقدية في الحياة إلى الضعف، أي ما يوازي اللبن الذي تنتجه أربع بقرات، فإن على الفلاح أن يضغط على البقرة (أو يعتصرها) حتى تعطيه إنتاجا يوازي أربعة أضعاف الإنتاج اليومي، فتكون النتيجة أن تموت البقرة في عمر مبكر بينما تضطر الحكومة الفلاح ان ينفق ثمن البقرة الثانية على بحوث مكثفة عن سبب وفاة البقرة في عمر مبكر، وعن كل شيء في حياتها، ما عدا السبب الحقيقي للوفاة، وهو الإنهاك القاتل المتمثل ببساطة في الاعتصار أو الاحتلاب الفائق.

• في النظام النازي تأخذ الحكومة البقرتين معًا، وتبيع لك اللبن بثمن معقول .

• في النظام العسكري تأخذ الحكومة البقرتين معًا، وتبيع لك اللبن بثمن مرتفع .

(٣)

ننتقل بعد هذا إلى ما جعل بسطاء المصريين يكرهون الأيدولوجيا :

• في النظام الناصري تأخذ الحكومة البقرتين معًا، ولا تمكنك من شراء لبن البقرتين ولا أي لبن طبيعي، وإنما تجبرك على شراء لبن صناعي هو في حقيقته مسحوق بودرة لبن جاء معونة للأطفال من هولندا، وأضافت إليه الناصرية الماء في مصنع مؤمم اقتطعته مما كان يقع ضمنه من أرض زراعية وعينت فيه آلاف العاطلين،

• ومع أن المصنع الناصري أسس من باب الفشخرة بتكنولوجيات معقدة، فإنها معطلة تمامًا، وهو لا يصنع شيئًا من الصناعات الغذائية البسيطة مكتفيا بوضع شاذ هو استقباله ما يصله (بشبه الإجبار) من ألبان من الفلاحين البسطاء، وهو يستقبل هذه الألبان المتنوعة في حجرة تجميع تأتي إليها عربات مصانع المنتجات «الثرية» المتعاقدة على استلامه إلى أرض المصنع التي أصبحت مجرد مركز تجميع .

وهكذا تحول المصنع مع الزمن إلى مركز تجميع للبن الطبيعي فحسب، بينما اللبن الذي ينتجه المصنع ويوزعه على المواطنين شيء آخر.وقل مثل هذا في كل المصانع الناصرية.

• ففي الناحية الأخرى أوعية كبيرة توضع فيها الألبان البودرة، وتخلط بماء الصنبور بكميات فائقة لتصنع لبنًا خفيف الدسم، تضعه المصانع «الناصرية» في أكياس بلاستيكية رخيصة متواضعة، وتبيعه للناس على أنه لبن طبيعي، ودراويش الناصرية يقسمون الأيمان المغلظة (حبا وعن جهل) أنهم رأوا اللبن الطبيعي يدخل إلى المصنع الذي تخرج منه أكياس اللبن، بينما الفلاح المصري البسيط الذكي يقسم لك بالله أن هذا الذي في الأكياس لا يمت للبن « البلدي» بأي صلة، والفلاح أصدق من الدراويش.

لا يزال هذا المثل الذي فعلته الناصرية وامتدادتها بنظريات الاقتصاد قابلًا للتكرار، لأنه هو الحل «الأمثل» لستر الفساد المستشري في الحكم في بلد محدود الموارد وفائق القدرة على الإفساد والفساد والإدعاء والدعاوي الكاذبة .

(٤)

في المقابل فإن الفلاح المصري صاحب التراث العريق في الزراعة والرعي وتربية الحيوان والانتاج الحيواني والداجني يضع يديه في وسطه ويقول لك وللاقتصاديين جميعًا: إنه هو وكل فلاح يعرفون في الاقتصاد أفضل من كل هذه النظريات .

• ويضرب لك الفلاح المصري المثل بأن من الخطأ البارز في نظرية الرأسمالية أن تلجأ في تكوين القطيع إلى ثور لكل بقرة لأن هذا نوع من العبث، فالثور الواحد في القرية (أو العزبة) كفيل بعدد غير محدود من البقرات إذا أردت تكوين القطيع، ويزيد الفلاح المصري الماكر هذه الفكرة إيضاحًا بأن يسخر لك من هؤلاء الخواجات الذين لا يستفيدون من فكرة تعدد الزوجات، لأنهم لا يعرفونها إلا في الحرام.

• يزيدك أي فلاح مصري حديثًا عن الذكاء في توظيف الاستثمار حساب العمر الافتراضي، فيقول لك إنك بلغة الاقتصاد لابد أن تستخدم « لحم البقرة» في الوقت المناسب قبل أن « تموت» البقرة بحكم متوسط العمر فتفقد الاستفادتين للأبد فلا أنت استفدت من لبنها، ولا من لحمها ومكوناتها (بما فيها الجلد مثلا) .

• على صعيد ثالث يزيدك أي فلاح مصري حديثًا مماثلًا عن العمر الافتراضي للثور .

• على صعيد رابع فإنه يزيدك حديثًا رابعًا عن إمكانية أن تربي الثيران لمجرد التسمين، أي

لإنتاج اللحم، ويفاجئك بأن هذا قد يتعارض تمامًا مع فكرة إنتاج القطيع، إذ إن اكتساب اللحم بغزارة كثيرًا ما يتطلب التضحية بالجهاز التناسلي للثور، لأنها أضمن وسيلة لتسمين بعض السلالات وبعض الحيوانات ومنها الكباش على سبيل المثال.

• يفاجئك الفلاح المصري البسيط بحديث خامس عن الطريق الأمثل للتعامل مع الذرية الناشئة عن التزاوج .

• كما يفاجئك بحديث سادس عن الحدود الفارقة بين الصواب (الأمان) والخطر في تشغيل إناث البقر في فترات الحمل والرضاعة .. وكيف أن هناك معدلات دنيا ومعدلات قصوي وأن تجاوز هذه أو تلك كفيل بالكوارث.

• ويفاجئك الفلاح المصري بما يعلمه من أن تغذية الحيوان أصبحت تمثل مشكلة في ظل زيادة أسعار العلف الجاهز، أو في ظل ارتفاع تكلفة محاصيل الحقل التي يتغذى عليها الحيوان بما في ذلك البرسيم، وترى من حديثه الآسف أن أى قرار حكومي من قرارات حكوماتنا في عهد ثورة يوليو لم يقترن أبدًا بحكمة، ولا عطف على الفلاح ولا رعاية لمصالحة، وإنما ارتبط في الغالب بكارثة من الكوارث الحكومية التي تحب هذه الدولة المصرية تكرارها.

(٥)

على هذا النحو تكتشف أن الوعي السياسي الذي يقوله أبناء النخبة: إنه مفتقد عند العامة، موجود عند هؤلاء بأضعاف ما هو موجود عند النخبة، وتكتشف أن المثقفين يخدعون أنفسهم بأكثر مما تحتمل الخداع، وتكتشف أن المصريين لم ينتخبوا سعد زغلول ولا النحاس بأغلبية التسعين في المائة من فراغ، وإنما انتخبوهم لأنهم كانوا في قراراتهم يريدون لهم ما يريدونه لأنفسهم ولهذا فضلوهم على كل من يريد من الناخبين أن ينتخبه الشعب لأفكاره الجامدة.

تعرف بكل بساطة أن الأصل فيما به الأثر الوارد في أدبيات الفقه الإسلامية حول استحالة إجماع الأمة على ضلال، يعتمد في حقيقة الأمر على ملح الأرض أي على هؤلاء البسطاء الذين يعرفون ولا يجاهرون برفع الصوت وإنما برفع طاقة التشغيل ..

ولا يشغلون لك الماكينة بالصوت العالي، وإنما بالمخرجات العالمية في ذكاء وتدبير، ودون التزام بكاتالوج.

هم يريدون منك أن توفر لهم سلالات جيدة ممتازة غزيرة الانتاج وأن توفر لهم سمادًا جيدًا مدعومًا أو رخيصًا، ومخصبات وأدوية ومبيدات غير ملوثة للتربة ولا للبيئة، ويطلبون منك أيضًا أن تكف عن التدخل في ممتلكاتهم وأساليبهم .. ولا تأخذ منهم البقرة، ولا تنصح ببيعها، كما يطلبون منك كزعيم ألا تنهاهم عن التخلص منها في الوقت المناسب أيضًا.

الفصل الثالث

منهجية العلم أفضل مداخل التفكير السياسي

جاهرت كثيرًا بأن العلم هو أفضل المداخل إلى تنمية التفكير السياسي القويم، ومع أن مصلحة الكثيرين لا ترحب بالتأمين أو الموافقة على مثل هذا القول أو قبوله جزئيا أو كليا فإن الأيام الماضية أثبتت مدى صوابه إلى حد بعيد . وسأخصص هذا الفصل لتقديم محاولة «شخصية» قمت بها من أجل تقريب معاني المفاهيم العلمية والفلسفية بطريقة واسعة الافق بما يضمن الدخول إلى مجالات واسعة من المداولة الخصبة حول ما تثيره أربعة مفاهيم هي بالتحديد : التحليل والتركيب والتشريح والبحث العلمي.

التحليل

التحليل على وجه العموم هو إرجاع ظاهرة مركبة إلى أبسط عناصرها أو أجزائها، ويستخدم اللفظ في علوم إنسانية وطبيعية كثيرة بمعانٍ متعددة، لكنها جميعًا ترتبط بهذا المعني العام، ففي علم المنطق يعتبر التحليل بمثابة طريقة لدراسة الظواهر، تجزئ الشيء المدروس إلى وحدات متشابهة، إما بالتقسيم المادي، وإما بالتفكير في أجزاء أو صفات الشيء المتمايزة، كل على حدة.

وفي علم النفس، فإن التحليل هو تحديد مكونات أية خبرة كلية أو مركبة أو عملية عقلية، ويستخدم لفظ التحليل (اختصارًا للتحليل النفسي) للدلالة على منهج ومزاولة التحليل النفسي (وهو ما يطلق عليه تجاوزًا: نظرية التحليل النفسي)، حيث تدرس الأحلام

والتداعيات غير المقهورة وأحلام اليقظة بتوجيه عدد كبير من القوانين وقواعد التفسير.

وتتمايز أنواع مختلفة من التحليل تبعًا لهذا، **فالتحليل الفعال** هو الطريقة التي لا يقتصر فيها المحلل نفسه على تسجيل وتفسير التداعيات الحرة، بل يتدخل بجد وفاعلية محاولًا إثارة ارتباطات ذات دلالة، ومقدمًا النصح على أساس المحتوي الصريح، **وتحليل الذكريات** هو بحث التاريخ العقلي للفرد المستمد في جزء منه من الشخص نفسه، وفي بقيته من أقرانه ومعارفه.

وفي الطب النفسي يطلق التحليل المباشر على إحدي الطرق المتبعة في علاج المصابين بانفصام.

وفي علوم التربية يطلق تحليل المناشط على أسلوب يعمد إلى تجزئة السلوك المركب والمعقد إلى وحدات أصغر أكثر نوعية وتحديدًا، ويستخدم هذا بصفة خاصة في المقررات الدراسية.

وفي علوم الاجتماع يستخدم تعبير تحليل الصفة أو الجانب في الدراسات التي تستهدف إيجاد ذلك الجانب المتميز من سمة معينة في مجموعة مدروسة من الناس، على نحو ما يحدث في دراسة الثقافات المختلفة، وذلك لتحليل المعاني والصفات المشتركة المرتبطة بالقيم المختلفة.

وتحليل المضمون يقودنا إلى دراسات موسعة وشائعة الانتشار الآن في الدراسات الإعلامية والأدبية تعني بتحليل الخطاب الذي يدلي به الشخص على أساس ما يقال لا على أساس كيف قيل، وبمعناه العام فإن تحليل المضمون قد يكون بمثابة الجدولة الموضوعية للتكرار التي تظهر عناصر معينة في النص المحلل، وهو إذن بمثابة اكتشاف وتبويب الأفكار والمشاعر والحقائق والأطر المرجعية وفق خطة منظمة.

وفي الطب بصفة عامة يعني الأطباء بتحليل مضمون شكوي المريض للحصول على المعلومات التي تتعلق بعناصر المرض، ويُدربون في دراستهم الإكلينيكية على القدرة على تحليل ما يتاح لهم من معلومات حتي لو كانت ظاهرة البطلان، فالذي يشكو مما ليس فيه يريد بمثل هذه الشكوي الكاذبة شيئا آخر يستطيع الأطباء استنتاجه، والوصول إليه

بحكم خبرتهم الطويلة بمثل هذه الحالات.

وفي علوم الإحصاء يستخدم لفظ التحليل في كثير من المصطلحات الإحصائية، ومنها التحليل التوزيعي.

أما تحليل متعدد المتغيرات، فأسلوب إحصائي يستخدم بكثرة في البحوث العلمية والطبية، ويهدف من أجل بيان أثر عدة متغيرات وهي تتفاعل معًا، وذلك من خلال عدة طرق مختلفة (كتحليل العوامل المتعددة وتحليل التباين الاقتراني)..

أما تحليل التباين فهي طريقة لتحديد ما إذا كانت الفروق (ويعبر عنها بالتباين) الموجودة في المتغير التابع تتجاوز ما يمكن أن نتوقعه عن طرق المصادفة.. وقد يعامل كل متغير بدوره على أنه المتغير التابع.

وفي علوم الصوتيات يطلق تحليل الصوتيات على تجزئة تتابع صوتي إلى وحدات أصغر.

وفي علوم الكيمياء يطلق على العملية التي تثبت العناصر المختلفة المكونة لمركب ما، وقد تطرق هذا المعني إلى تحليل البول والدم والبراز وسوائل الجسم الأخرى، بل وأنسجته في المختبرات الطبية للكشف عن عناصر معينة تنبئ عن حالة المرض أو نسبة معينة من مكون معين تنبئ زيادتها عن وجود المرض وتطوره.

وفي اللغة العامة حلل العقدة: حلها.

ومع كل هذا يستخدم الفعل «حلل» ومصدره «التحليل» للدلالة على نفس معني الفعل «أحل» الوارد في قوله تعالي: {وأحل الله البيع وحرم الربا}، وهو الإباحة، ومن هذا يرد قولهم تحليل اليمين، أي جعلها حلالًا بكفارة أو بالاستثناء المستقل.

التركيب

تعارف المتصلون بعلوم الفلسفة على أن التركيب ضد التحليل، وهو تأليف الكل من أجزائه، كتركيب الماء من الأكسجين والهيدروجين،ويدلنا هذا المثل بذاته على طبيعة التركيب، التي تستلزم قوة ما تجعل من العناصر مركبًا، فليس اجتماع الهيدروجين

والأكسجين بكافٍ لتركيب الماء، وإن كان الماء لايتركب إلا منهما فحسب.

ويمكن فهم التركيب العقلي على نفس النحو على أنه تأليف نتائج مركبة من مبادئ بسيطة، وقد أشار ديكارت في مقالاته إلى أن التركيب قد يفرض ترتيبًا بين الأمور التي لا يسبق بعضها بعضا بالطبع.

وعند فلاسفة المسلمين نجد التركيب في كثير من الأحيان مرادفًا للتأليف حيث تُـجعل الأشياء المعقدة بحيث يطلق عليها اسم الواحد، ويتميز عنه الترتيب الذي يعني بالإضافة إلى هذا بالتقديم والتأخير بين العناصر.

وعلي هذا يمكن فهم القول الفلسفي بأن التركيب صفة انفعالية زائدة على ذات الأشياء التي قبلت التركيب، على حين أن الوجود هو صفة هي الذات بعينها.

ويستخدم مصطلح التركيب في كثير من العلوم والفنون بمعانٍ تتقارب في العمومية وإن اختلفت من علم لآخر.

فالتركيب في نظرية المعرفة هو جمع تصور إلى آخر أو إلى عدة تصورات، وذلك من أجل تأليف صورة عقلية واحدة .

وفي علم الصرف يطلق التركيب على جمع حرفين أو أكثر بحيث يطلق على اجتماع الحروف معا اسم « الكلمة » .

أما في علم النحو فهو مقابل للإفراد، فإن كان بين اللفظين إسناد كان التركيب إسناديا، وإن كان أحدهما مضافا والآخر مضافا إليه كان التركيب إضافيا، وإن كان أحدهما موصوفا والآخر صفة كان التركيب وصفيا.

وفي المنطق يطلق المركب على المؤلف، وعلي حد تعريف ابن سينا، فهو الذي يدل على معني وله أجزاء منها يلتئم مسموعه، والطريقة التركيبية في المنطق هي انتقال العقل من المعاني والقضايا البسيطة إلى المعاني والقضايا المركبة.

وتعرف الطريقة التركيبية أيضًا، بأنها انتقال العقل من قضايا يقينية إلى قضايا أخرى لازمة عنها اضطرارا.

وفي تطبيقات المنطق يطلق المصطلح على الطريقة التي يسير عليها الباحث في الانتقال من الفصول إلى الأصول، أي من الأجزاء إلى الكل، وقيل في تعظيم شأن هذا المعني إن يوما واحدا من التركيب يحتاج إلى سنين طويلة من التحليل.

ويطلق مصطلح التركيب أيضا على الرأي الفكري الذي يجمع بين رأي وضده في قول جديد يأخذ بأحسن ما في الرأيين، ويمزج أحدهما بالآخر مستعينا على هذا بوجهة نظر أعلي من وجهتي نظر الرأيين.

وفي علم النفس يطلق التركيب على الفعل الذي يؤلف به الذهن من التصورات والعواطف والنزعات المختلفة كلا عضويا واحدا.

وفي علم النفس التجريبي هو جمع العناصر النفسية الواقعية بحيث تؤلف كلًا واحدًا.

وينبغي التفريق [في التحليل النفسي] بين التركيب العقلي الذي يجمع الظواهر الجديدة وينسقها، وبين التداعي الذي يقتصر على استحضار المجموعات السابقة استحضارًا غير إرادي.

ويوصف الإنسان بأنه من ذوي العقل التركيبي حين يلتفت إلى الكل دون الأجزاء، على حين أن العقل التحليلي لايفطن إلا إلى الأجزاء.

والحكم التركيبي هو الحكم الذي يكون فيه المحمول زائدا على تضمن الموضوع.

وفي الشعر يطلق المصطلح على منظومة من أقسام، يتراوح عدد أبيات كل قسم بين خمسة أبيات وأحد عشر بيتًا، ولكل قسم قافية، والقافية في المصراعين الأولين هي القافية في المصراع الثاني من كل بيت، لكن قافية كل قسم تختلف عن قافية الأقسام الأخري، وإن كان الروي واحدًا في المنظومة كلها، وبعد كل قسم بيت يكرر رويه في الأقسام الأخرى، وله قافية وحده.

والبرهان التركيبي في علوم الرياضة هو الاستنتاج الرياضي الذي تلزم فيه النتائج عن المبادئ اضطرارا كما في علم الهندسة الذي تبني قضاياه على التعريفات والبدهيات والمسلمات والأوضاع.

أما في علم الحيوان فإن التركيب يشير إلى التعقيل التكراري، أي تكرار مجموعة من العناصر المنتمية إلى الأجهزة العضوية الرئيسة للجسم على طول المحور الأمامي الخلفي لجسم، وأكثر ما يحدث في الحلقيات ومفصلية الأرجل، وينشأ عن التكرار سلسلة من الوحدات تسمي العُقل، تكون متشابهة في تركيبها ونشأتها أساسيا، وفي دودة الأرض على سبيل المثال تكون كل حلقة ظاهرة عقلة، وتشتمل كل عقلة على أوعية دموية، وتراكيب جلدية، وجهاز عصبي، وأعضاء إخراج ... إلخ.

ويتكرر هذا «التركيب» في كل عقلة مع اختلاف طفيف من عقلة إلى أخرى، ومع هذا فإن مبدأ التشابه بين العقلات يكاد يتلاشي في طوائف أخري من الحيوانات فتكون عقل الرأس مختلفة عن العقل الأخري.. وهكذا.

وفي الفقاريات يظهر التعقيل بشكل واضح في التكوين الجنيني، لكنه يكاد يقتصر على أجزاء الأجهزة العضلية والهيكلية والعصبية، فلا يظهر في البشرة على سبيل المثال.

التشريح

التشريح لغة الفتح والشرح والبيان والعرض، واصطلاحا بيان علم أو تفسير كتاب واللفظ في هذه الدلالة مثل «شَرْح».

يطلق اللفظ الآن مطلقا على العلم (الفن) الذي يعني بدراسة بناء الجسم وتموضع أعضائه وأجهزته وأنسجته، وذلك عن طريق تقطيع الجسم إلى أجزاء، ومع انتشار استخدام الميكروسكوب في دراسة الأنسجة نشأ علم الأنسجة (الهستولوجيا) ويطلق عليه «علم التشريح الميكروسكوبي».

وترتبط بهذا العلم مجموعة من العلوم الأخري المهمة تُدرس في إطاره، وترتبط به على مستوي البحث العلمي والتعليم الطبي، ومن هذه العلوم علم الأجنة الذي يُعني بدراسة وتتبع عمليات تخليق أنسجة الجسم البشري المختلفة وأعضائه في أثناء الحياة الجنينية، أما علم التشريح المقارن فيقارن بين بنيات الأجسام المختلفة في أنواع حيوانية مختلفة أو بينها وبين الإنسان.

ولا تقتصر دراسة التشريح على ما بعد الوفاة، ذلك أن الأجهزة الحديثة (كالأشعة والموجات فوق الصوتية وتقنيات التصوير المختلفة) مكنت من دراسة أجزاء الجسم الحي بصورة دقيقة، وعلي سبيل المثال فإن دراسة القلب بالموجات الصدوية غيرت من فكرتنا عن تشريحه من حيث تموضع أجزائه وصلتها ببعض.

ويعزي إلى العالم فيزاليوس في القرن السادس عشر وضعه التشريح في صورته الحديثة التي تطورت باستمرار واطراد حتي أيامنا هذه.

أما أقدم العلماء الذين سجلوا جهودا بارزة في علم التشريح فهو هيروفيلس من علماء الإسكندرية في عهد البطالمة في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، ثم جالينوس في القرن الثاني قبل الميلاد وقد تعلم في الإسكندرية، ثم مارس الطب في روما، وهو الذي أخذ عنه العرب معلوماتهم عن التشريح في الحضارة العربية الإسلامية، وكانوا يسمونه «الفاضل».

ومن الطريف أن ابن القفطي لما وصف جالينوس جمع المعنيين الإصطلاحيين للتشريح في الثناء عليه فقال: «جالينوس هو مفتاح الطب وباسطه وشارحه .. ولم يسبقه أحد إلى علم التشريح». وفيما نعلم فإنه لم يمارس أحد قبل علماء الإسكندرية التشريح، وكان جالينوس يمارس التشريح على القردة.

ومع أن المسلمين لم يُقبلوا في بداية عهدهم على التشريح، إلا أنهم بعد أن عرفوا قيمته لم يتركوا فرصة له إلا وأفادوا منها علوم الطب، ويستشهد مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية على هذا المعني بما ورد في رحلة عبداللطيف البغدادي من أنه لما علم أن بالمقس (وهي إحدي البلاد المصرية) تلالًا من البقايا الإنسانية، أخذ في تفحص هذه الهياكل وكتابة مشاهداته.

ومما يذكر للعرب أنهم حافظوا على تراث جالينوس في التشريح حتي إن المقالات الخمس الأخيرة من كتاب جالينوس في التشريح (وهو من ١٥ مقالة) لا توجد لها أصول ولا نصوص إلا في اللغة العربية فقط.

ومن أبرز آثار علماء العرب في التشريح ثلاثة مصنفات: الأول لابن سينا في كتابه «القانون»، والثاني لعلي بن عباس (ت ٣٨٤هـ) في كتابه «الكامل في الصناعة الطبية» المعروف بالملوكي، والثالث للرازي (ت ٣٢٠هـ) في كتابه «المنصوري في الطب».

وقد عرف العرب ما نسميه الآن التشريح الجهازي، وتأليف كتب متخصصة في تشريح كل عضو من الأعضاء، فلهم كتب في الأوردة، وحركة العضل، والعظام، والنبض.... إلخ.

ومما يميز مؤلفات الأطباء المسلمين في التشريح ذلك النسق العام في التأليف الذي يبدأ بعلم العظام بوجه عام، ثم بدراسة مفصلة لعظام الرأس والأسنان والعمود الفقري والصدر وعظام الأطراف العليا واليدين وعظام الأطراف السفلي والقدمين، ثم دراسة العضلات بنفس النظام، ثم دراسة المجموع العصبي والشرياني، ثم شرح الأعضاء الظاهرة والباطنة (كأعضاء البصر والشم والسمع واللسان والحنجرة والرئتين والأمعاء، والطحال، والكليتين، والمثانة وأعضاء التناسل) .

ومن إنجازات العلماء المسلمين في التشريح أنهم درسوا الوظيفة والتركيب معا، وأنهم استطاعوا تعريب كل ألفاظ التشريح ومصطلحاته حتي إن الموسوعة الإسلامية تذكر أنه لم توجد في التشريح العربي ألفاظ فارسية أو يونانية ما عدا كلمة واحدة، ومع هذا فإن التشريح العربي في رأي الموسوعة لم يزود الحضارة الأوروبية بمصطلحات ما، وإن كانت بعض ألفاظه قد استعملت لفترات متباينة المدي .

البحث العلمي

يقصد بمصطلح البحث العلمي الدراسة المنهجية لموضوع معين بالاستناد إلى حقائق العلم وأساليبه، ولا يقتصر معني البحث العلمي كما هو شائع على البحث في العلوم الطبيعية، وإنما يمتد مفهوم البحث العلمي ليشمل كل فروع الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية.

وهكذا فإن الدراسة المنهجية لأدب من الآداب، أو لحقبة تاريخية، أو لمنطقة جغرافية تمثل بحثا علميا، مع أن الاستعمال الشائع في الوطن العربي في الفترة الحاضرة للمصطلح يكاد يقتصر على البحث العلمي في مجال العلوم فحسب.

من أوليات البحث العلمي جمع المعلومات التي توصل إليها الآخرون الذين بحثوا، أو كتبوا في هذا الموضوع من قبل، ومن الواجب على الباحث أن يشير إلى رأيه الذي كونه بعد البحث في هذه الكتابات، سواء اتفق أواختلف مع ما سبقه إليه الآخرون، ويحسب على الباحث أن يتجاهل جهود مَن سبقوه، ويسم هذا بحثه بالقصور.

وقد شاع أن البحث العلمي لابد أن يؤدي إلى تحقيق اكتشافات جديدة في مجال المعرفة العلمية، أو ابتكار عمليات إنتاج أو منتجات جديدة، وهي فكرة صحيحة إلى حد كبير، لكنها لا تتحقق بصورة تلقائية، ولا نتيجة بحث واحد، وربما قاد البحث عن شيء إلى اكتشاف شيء آخر.

وللحضارة الإسلامية دور كبير في تشجيع البحث العلمي، وقد بدأ كثير من روادها تطبيق مفاهيم التجريب منذ مرحلة مبكرة، وحققوا في هذا المجال نجاحات مذكورة.

ويفرق البعض بين البحوث الأساسية والبحوث التطبيقية، فالبحوث الأساسية أسمي غرضًا وأعمق تأثيرًا، وتتولاها الجامعات ومؤسسات البحث العلمي، ونتائجها قليلة العدد لكنها خطيرة الأثر، ومن أمثلتها البحوث التي أدت إلى تطوير استخدام الذرة ونواتها.

أما البحوث التطبيقية فهي تلك التي تهدف إلى تحقيق هدف علمي صناعي أو إنتاجي كتطوير منتج أو جهاز أو طريقة، وأحيانًا يطلق على هذه البحوث مصطلح البحوث التكنولوجية من باب التجاوز، ولا تخلو مؤسسة صناعية متقدمة من إدارة متميزة لهذه البحوث، لأنها هي الكفيلة بتجديد قدرة هذه المؤسسات على المنافسة بل والوجود.

وتحاط الأبحاث التطبيقية بالسرية التي تكفل رجوع العائد منها على المؤسسة، لاعلى المؤسسات المنافسة، وتحفظ القوانين المدنية للمؤسسات الإنتاجية حقوق الانتفاع بالاختراعات والاكتشافات التي تولت تمويل إنتاجها، ولعل أبرز نموذج شائع لهذه البحوث تلك التي ترتبط باكتشاف عقارات طبية جديدة، أو تطوير الأجهزة .

الفصل الرابع

أخطر وباءات الديمقراطية:
ظاهرة محامي الإجرءات

(١)

بني أحد أساتذتنا من المحامين المشاهير (الذين أكن لهم وله التقدير) سمعته في تحقيق نجاحاته على ألا ينظر إلى الموضوع أبدا، وإنما هو كفيل بالإجراءات، يتتبعها ويتعقبها حتي يصل إلى ثغرة منها تجعل الحديث عن أحقية الحق مؤجلا، وتجعل الحديث عن بطلان الحق أقرب إلى التصديق، لا لشيء إلا لضرورة الالتزام بالدقة في الإجراءات.

نعرف أن أكثر مجال يفيد فيه هذا الفكر هو الضبط الجنائي لقضايا المخدرات، حيث يشترط القانون ضرورة اتباع قواعد قانونية صحيحة، حفاظًا على سمعة المواطنين، حتي لا يقال لكل واحد إن ضابطا أمسك به وهو يتعاطي، أو وهو يتاجر، أو وهو ينقل الشحنة من المخدرات المتوقفة على الشحن أو التفريغ (!!).

نعرف أيضًا أن قضايا المخدرات تتيح الأجور (الأتعاب) العالية للمحامين، لأنها تتعلق بالحرية على مدي سنوات طويلة، وما أدراك ما معني الحرية بالنسبة لتاجر، ويأتي في المقام الثاني: الشرف والسمعة وما إلى ذلك من أشياء قد تثبت بحكم المحكمة، وربما لا تثبت.

(٢)

لاشك في أن القضايا السياسية في حقيقة أمرها أكبر من أن تكون قضايا مخدرات، وأن جوهرها أرفع بكثير من أن يكون كجوهر قضايا المخدرات (التي تسمي في بعض اللحظات القانونية بالجواهر)، وأن التعامل مع هذه القضايا على أنها قضايا مخدرات يفرغها من مضمونها، ويسيء إلى المتهمين فيها، كما يسيء إلى صورة الشعب الذي تتداول القضايا باسمه ومن أجله.

لهذا كله كنت أتعجب من أن يقبل أي سياسي وصل إلى مناصب كبيرة أن يستند الدفاعُ عنه إلى ما يستند إليه الدفاع في قضايا المخدرات من حديث عن مشروعية تحريك قضية، أو ضمها أو فصلها أو موعد عرضها في دائرة عرضها... إلخ،

وكنت أظن أن الدفاع الذكي يلجأ مباشرة إلى الموضوع، ويطرح وجهة نظر المتهم طرحًا ينجيه من سوء القصد في المقام الأول، فإذا نجح في هذا التفت إلى تبرئته من سوء النية، وقرن هذا بأن جعل الخطأ من قبيل سوء التقدير، فإن لم يستطع فإنه يجعله من سوء التدبير، ويبحث له عما يبرر سوء تدبيره حتي لو كان هذا التبرير متعلقا بعاطفة أبوية، أو بذاكرة كليلة، أو بحالة نفسية متردية..

كنت أظن.. لكني أفقت من ظنوني على حديث يجلجل الجرس فيه دون أن يقنعني بشئ .

الفصل الخامس

دلالات تكريم رموز الأدب في المجتمع المصري المعاصر (بين التاريخين السياسي والثقافي)

(١)

مع نهاية شهريونيو فى كل عام يجرى التصويت على جوائز الدولةالتى أصبحت منذ عام ١٩٩٩ أربع جوائز : التقديرية، والتشجعية منذ عام ١٩٥٨، والجائزة الكبرى التى سميت (قبل أن تمنح) النيل ثم مبارك (حين منحت) ثم عادت إلى النيل، والتفوق، وهما حديثتان واعتبرتا تكراريين زمنيين للجائزتين القديمتين ـ أى أن التفوق تشجيعية مضاعفة أو كبيرة،والنيل تقديرية مضاعفة أو كبيرة.

لعل التأمل فى حاملى هذه الجوائزيعطينا فكرة عن جوهر المجتمع الثقافى المعاصر فى عهد مبارك (١٩٨١ – ٢٠١١)، وما تبقى فيه من العهود السابقة عليه،وربما كان أفضل تمثيل لهذا الواقع الثقافى أن نبدأ بتأمل الأحياء من الحاصلين على الجائزة التقديرية ومدى حصولهم على جائزة مبارك، أو ترشيحهم لها، فذلك فى حد ذاته يدل دلالة واضحة على الديناميات أو الحركات الأخيرة فى المجتمع الثقافى بعد ٢٤عامًا من سيطرة فاروق حسنى ومجموعته على مقدرات الحياة الثقافية فيه.

(٢)

• أقدم الحاصلين على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب هو نفسه أقدم الحاصلين على النيل أو مبارك فى الآداب وهو الأستاذ الكبير أنيس منصور،وفى هذا دلالة على أنه كان من الصعب على مجموعة قيادات الثقافة فى العهد «الفاروقى» أن تتجاوزه بأى حال من الأحوال، وهذه حقيقة.

• ثانى أقدم الأحياء الحاصلين على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب هو الدكتور حسين نصار الذى حصل عليها عن عام ١٩٨٦، ومن حسن الحظ أنه حصل على جائزة النيل أيضًا، ومن حسن الحظ أنه قد أصبح بمثابة ثانى أقدم الحاصلين عليها فى الآداب بعد أن توفى السابقون عليه من الذين نالوا الجائزتين وهما الدكتوران عبد القادر القط، وأحمد هيكل، وبعد أن توفى أقدم الجميع فى الجائزتين، وهو عميد الرواية الأستاذ نجيب محفوظ (حصل على التقديرية فى ١٩٦٨، وعلى النيل مبارك فى ١٩٩٩)، أما الدكتور شوقى ضيف رابع الحاصلين على النيل (مبارك) فى عام ٢٠٠٣فكان قد سبقه إليها اثنان من اللذين حصلا على التقديرية بعده،فقد حصل الأستاذ أنيس منصور على التقديرية فى ١٩٨١وحصل الدكتور القط عليها فى١٩٨٤، بينما حصل شوقى ضيف على التقديرية فى ١٩٧٩.

• ثالث أقدم الحاصلين على جائزة مبارك النيل الآن هو الأستاذ بهاء طاهر الذى حصل عليها (٢٠٠٩)، وهو تاسع الحاصلين على التقديرية، وقد قفز اسمه إلى هذا الموقع بعد وفاة عدد آخر من السابقين عليه : الدكتور عز الدين إسماعيل (الذى حصل عليها عام ٢٠٠٧) ورجاء النقاش (الذى حصل عليها ٢٠٠٨)، لكن ترتيب الأستاذ بهاء طاهر بين الحاصلين على التقديرية يأتى فى المحل الثانى والستينعلى مدى تاريخها،فقد حصل عليها فى١٩٩٧.

(٣)

ولايزال هناك من بين المرشحين لجائزة النيل – مبارك عدد لايستهان به ممن حصلوا على التقديرية قبل الأستاذ بهاء طاهر،ومن هؤلاء الشاعر محمد التهامى (حصل على

التقديرية١٩٩٠) والدكتور كمال بشر (حصل على التقديرية ١٩٩١) والدكتور الطاهر مكى (حصل على التقديرية فى١٩٩٢) والدكتور محمود على مكى (حصل على التقديرية فى ١٩٩٣) والأستاذ فاروق شوشة (حصل على التقديرية فى ١٩٩٦) ويسبق هؤلاء الخمسة عالم جليل توفى لتوه،ويسمح القانون بأنيمنح الجائزة على نحو ما حدث فى أعوام سابقة وهو الدكتور مصطفى الشكعة الذى حصل على التقديرية قبل الأستاذ بهاء طاهر وقبل أقدم خمسة حاصلين عليها ولم يحصلوا على النيل وبعد ذلك أنه حصل على التقديرية منذ ١٩٨٩مع إحسان عبد القدوس وفاروق خورشيد.

ومع أن بهاء طاهر اسم كبير وقامة كبيرة فى الأدب والأخلاق معًا، فقد ارتبط وجوده فى الصفوف الثقافية الأولى بالعهد الأخير،وهو عضو فى المجلس الأعلى للثقافة على حين أن هؤلاء الذى أشرنا إليهم لتونا لمينالوا هذه العضوية، ومن الطريف أن قطبا آخر من أقطاب الثقافة فى العصر الحاضر وهو الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى كان قد نال التقديرية مع بهاء طاهر فى١٩٩٧، كما أنه عضو فى المجلس الأعلى للثقافة،وكان أحد العشرة الذين التقوا الرئيس مبارك فى ختام عهده وهو مرشح متوقع للجائزة التى حملت اسم الرئيس السابق.

(٤)

رابع (وآخر) الحاصلين على جائزة النيل من بين الأحياء هو الشاعر عبد الرحمن الأبنودى، وكان قد حصل على هذه الجائزة فى العام التالى لبهاء طاهر، أما حصوله على التقديرية فقد كان فى بداية الألفية الثالثة (٢٠٠١) مزاملًايومها الاستاذين يوسف الشارونى ورجاء النقاش،ومع أن النقاش سبقه إلى الجائزة الأعلى بعام فإن ثالثهم أي الشارونى لايزال ينتظر!!

وقد سبق هذان الرجلان الأسماء التى أشرنا إليها فى حديثنا عن بهاء طاهر ممن لايزالون مرشحين (أو لاتزال أسماؤهم) لنيل الجائزة (المغفور له الشكعة،والتهامى، وكمال بشر والطاهر مكى ومحمود مكى وفاروق شوشة) فضلًاعن ثلاثة حصلوا على التقديرية ما بين بهاء طاهر والابنودى وهم: إدوار الخراط ومحمود حجازى، وصلاح فضل وفضلًاعن الشارونى الذى أشرنا إليه.

(٥)

هذا إذًا هو واقع الجائزة الكبرى فى عهد الرئيس السابق الذى نسبت إلى اسمه فى إجراء روتينى سريع فى مجلس الشعب حين اقترح تسميتها باسم الرئيس بدلا من النيل،وقال الرئيس القائم فى مجلس الشعب : موافقة بطريقة التساؤل والايحاء،ثم قال الكلمة نفسها مرة أخرى بطريقة التقرير والختام.

أما أعجب العجب فى تاريخ صراع القيادات فى عهد مبارك فهو أن رئيس مجلس الشعب نفسه فشل فى الحصول على هذه الجائزة فى العلوم الاجتماعية لسبب طريف ومركب، وهو سبب كاشف ودال على كثير من سمات ذلك العهد، فقد رأى بعض ذوى الرأى والمصلحة أن يرشحوا رئيس مؤسسة صحفية كبيرة للجائزة. وتصادف أن حدث هذا فى العام الذى كان رئيس البرلمان مرشحًا للجائزة.

وبدأت قيادة المؤسسة الصحفية حملة استقطاب ذكية لأصحاب الأصوات فى المجلس الأعلى للثقافة، فأصبحوا جميعًا كتابا دائمين فى الصحيفة، واقترب عدد الأصوات المؤيدة لهذا مع عدد الاصوات المؤيدة لذلك، وخرج الوزير الذى لم يكن يرتاح لرئيس البرلمان ليعلن بكل وضوح «أن الجائزة حجبت بسبب شدة المنافسة».

ولما كان من الواضح فى العام التالى أن هذا الاستقطاب الحاد سيتكرر فقد آثر الأعضاء أنفسهم البحث عن مرشح ثالث حتى لو لم يكن قريبا بالتوقعات، ذلك أن معظم المرشحين ـ إن لم يكن جميعهم كانوا مستحقين بالفعل للجائزة،وهكذا بحث الأعضاء عمن كان قد حصل على الترتيب الثالث فى الأصوات بعد القطبين الكبيرين المؤثرين، ومع أنهم وجدوه قد حصل على عدد قليل جدًا، فإنهم آثروه فى العام التالى بالجائزة،وكان من الطبيعى أنيعلن القطبان أنهما لنيترشحا للجائزة مرة أخرى.

(٦)

كان هذا فى العلوم الاجتماعية، لكن جائزة الآداب لا تحتمل هذا الترف .. وإنما هى تحتمل خلقًا آخر سوف يسيطر عن قريب على مناخ العمل فى الثقافة، وهو خلق التطرف الذىيزعم أنه لابد من وجوده وتكريمه وتتويجه .. لسبب واحد هو أن «يواجه» التطرف

الآخر» الذى لا وجود له لكن سياسة العصر السابق اعترفت بوجوده، وكرسته، وحذرت منه، وزعمت أنها تمثل سد يأجوج ومأجوج «فى مواجهته».

وهكذا عمد النظام السابق «عفريتا» من صنع يديه، حتى جاءت الثورة فأزالته وأزالت العفريت ..لكن مجموعة من كبار العقول فى نظر النظام السابق لاتزال تقول بأن العفريت لايزال موجودًا .. وأنهم العلاج الوحيد لهذا العفريت، وأن من حق الدولة عليهم أن تلقى لهم بمفاتيح الثقافة : تنفيذًا وتكريمًا وتتويجًا.

(٧)

بقى أن نسأل أنفسنا، هل كان الأديبان اللذان كرما فى عهد النظام السابق بحيث سبقا غيرهما من رجال مبارك أم من رجال فاروق حسنى أم من رجال أنفسهما أمن رجال الشعب؟

إنى أشهد شهادة حق رأيتها بنفسى وسمعتها بأذنى كما رآها الناس وسمعوها يوم ١١فبراير: أى يوم تنحى الرئيس، فقد كنت أعقب على الأحداث والتوقعات عقب تنحى الرئيس،وقطع المذيع حديثنا من أجل أنيذيع الأبنودى قصيدته التى انحازت للشعب ضد الرئيس الذىيحمل جائزة تحمل اسمه !! فلما خرجت من الأستوديو وجدت الأستاذ بهاء طاهر قد جاء هو الآخر، ليعلن انحيازه للشعب فى مواجهة الرئيس الذىيحمل جائزة كانت تحمل اسمه !

هكذا حسم الأدباء موقفهم على نحو ما حسم الشعب موقفه .. وبقى أن ينتبه الآخرون إلى ما انتبه إليه شباب الثورة من عقم الحديث عن عفاريت تذكارية.

الباب الثاني

تساؤلات كاشفة

الفصل السادس

وثيقة الأزهر:
هل هي وثيقة كونفوشوسية

(١)

ظن الناس أن المثقفين الذين اجتمعوا في رحاب الأزهر قادرون على أن يعبروا عن الشعب المصري، فوجدوهم أبعد ما يكونون عن هذا الشعب في هذه الوثيقة التي أصدروها والتي لا تختلف كثيرًا عن وثائق لجنة السياسات وتوصياتها في العهد القريب، فأنت تبحث في هذه الوثيقة عن إيمان بالله، أو باليوم الآخر، أو بالثواب أو العقاب، أو الرسل المرسلين من الله فلا تجد أبدا أثرا لهذه المعاني.

وتبحث في هذ الوثيقة عن القيم الروحية التي يعرفها المسلمون والمسيحيون الذين يعيشون على أرض هذا الوطن، فتجد أن القيم الروحية قد ضلت طريقها وابتعدت عن حياة الفكر عند أساتذتنا الأجلاء.

وأتصور أن أساتذتنا أرادوا الجمع بين الإسلام والمسيحية في وثيقة واحدة، فإذا بهم يفقدون الإسلام والمسيحية في هذه الوثيقة، كما أتصور أنهم حاولوا التأكيد على المشترك في الديانات، فإذا بهم يتركون ما هو دين إلى ما ليس بدين، وقد أراد أحد العلماء فيما مضي من الزمان أن يصور مكونات جسم الإنسان فقال: إن هذا الجسم يكفل صنع مائة صابونة.. وخمسين شمعة.. ومقعدة كرسي منضدة.. وعشرة أكواب من العصير الكوكتيل.. فضلا عن قطعة لحم تزن ١٠ كيلو جرامات .. وليت مفكرينا صنعوا صنيع هذا العالم، وحللوا

ما في الديانات من قيم روحية حتي بطريق كمية، لكنهم أرادوا الحديث عن المشترك بنفي الهوية فيما يتحدثون عنه.

(٢)

وهكذا جاءت وثيقتهم التى أطلقوا عليها من باب التزوير الواضح «وثيقة الأزهر» لا تسمن ولا تغني من جوع:

- حفلت الوثيقة بالألفاظ العالية.. لكنها افتقدت القيم العالية.
- وحفلت الوثيقة بالكلمات الراقية.. لكنها افتقدت المعاني الراقية.
- بدت الوثيقة وكأنها ساخنة.. بينما كانت في حقيقتها فاترة.
- توجهت الوثيقة إلى الجماهير بما يعبر عن خيانتها لعقائد الآخرين والأولين.
- اختزلت كل السمو الروحي في تشبيهات مستهلكة أصبحت نموذجا للمرجعية في العصر الأول للإنسان حين تعني المرجعية الارتداد إلى حياة النبات.

(٣)

يروي أن أحد أبناء البلد سأل عن الفارق بين الدهن الحيواني والدهن النباتي، فلما أفرط العلماء في شروح الفروق، قال الرجل ببساطة: يعني هذا دهن وهذا ليس بدهن، ثم أمسك عينتين بيديه وقال: هذا هو الدهن، وهذا هو اللادهن.

قال الرجل هذه الألفاظ بعامية محببة أكثر تأثيرا من الألفاظ المنمقة الشبيهة بألفاظ الوثيقة التي كتبها أساتذتنا، وليس من الصعب على القارئ أن يعرف أن الرجل قال : هذا دهن.. وهذا مش دهن.. ولو كان هذا الرجل من الذين يؤخذ رأيهم الآن في هذه الوثيقة لقال في بساطة شديدة: هذا ليس دينًا، وهذا ليس أزهر، وهذا ليس إسلاما، وهذه ليست مسيحية، وهذا ليس إلا ما هو نقيض ذلك.

الدين يخاطب الروح يا أساتذتنا.. ووثيقتكم تزهق الروح.

الدين يخاطب القلب يا أساتذتنا.. ووثيقتكم تغلق القلب.

(٤)

أتوقع أيها الأساتذة أنكم تعبتم كثيرًا في صياغتها، وفي تصويبها، وفي تعديلها بحيث يكون لها مكان من الصواب، لكنكم فيما يبدو لم تهتموا بأن يكون لها أثر.. لا في القلب.. ولا في العقل.. ولا في الوجدان.

أزعم أن بوسعكم أن تعودوا إلى اجتماعكم، وأن تكتبوا وثيقة أخري تخاطب الوجدان، وتخطب وده، بدلًا من أن تحجر عليه وتسفهه.

تذكروا يا أساتذتنا أن الثورة قامت بوجدان مشتعل حين كانت صياغاتنا جميعا للتعبير عن الأمل في المستقبل تنتهي إلى العدم.

لا تعودوا إلى العدم حتي لا يقال إن عقولًا مصرية مسلمة ومسيحية رزقها الله الذكاء أبت أن توظفه، وآثرت أن تعود بإنسان القرن الحادي والعشرين إلى عصور النبات.

الفصل السابع

مدى حاجة الثورة المصرية إلى ديستوفسكي

(١)

يبدو لي أن مصر في بحثها عن هويتها بعد ثورة ٢٥ يناير أصبحت في حاجة ماسة إلى أديب من طراز ديستوفسكي بما يمثله من أقصي درجات الحب لوطنه الروسي، ولغته الروسية وهو حب تفوق على كل ما هو معروف من شوفونية.

وأعتقد بكل وضوح أن مصر بحاجة إلى من يرشدها إلى طريق الاعتزاز بكل ما لمصر من مقومات الذات، والدين، والمذهب، والهوية، والقومية، والتراث، على نحو ما فعل ديستوفسكي بكتاباته التي نبهت الروس إلى الاعتزاز بكل هذه العوامل، حتي مع ما بدر منه من إسراف شديد في هذا التوجه.

وربما أني لست في حاجة إلى أن أذكر ما أتمناه لمصر على وجه التحديد إذا ما سردت للقارئ ملخصا لحياة هذه الأديب الروسي العظيم على نحو ينبئ بما أريد أن أقول.

عاش ديستوفسكي حياة طويلة صعبة، لكنه ترك آثارا عميقة في شعبه وأدب شعبه، كما امتد أثر أدبه خارج حدود وطنه. كان شديد التعصب لما هو روسي (سواء في ذلك: الوطن، واللغة، والشعب)، بل إنه كان يري اللغة الروسية في مكانة أعلي من اللغات الأخرى، وقد دفعه حبه إلى أن يصفها بأنها لا تُترجم في حين يمكن ترجمة سائر اللغات الأخرى إليها.

(٢)

كان ديستوفسكى يري الشعب الروسي شعبًا عظيمًا يحب الألم، ويسعي إليه في كل مكان وفي كل زمان، وأنه لنبالته يجد اللذة في النكبات والمصائب.

وكان يعتقد أن روسيا كأمة تختلف اختلافًا بينًا عن سائر الدول الأوربية، وأنها تتميز بموقفها المقاوم الذي يصل إلى درجة العداء لثلاثة اتجاهات مسيطرة على أوروبا هي كما أسماها: الاشتراكية الفرنسية، والبروتستانتية الجرمانية، والكاثوليكية الإيطالية.

ومن طرائف التاريخ وسخرياته أن الأرثوذكسية كانت منتشرة في روسيا من قبل ديستوفسكي، ومن ثم فقد انتفت في روسيا المذاهب الكاثوليكية والبروتستانتية . أما الاشتراكية الفرنسية فقد أصبحت متضاءلة إلى أقصي حد بالنسبة إلى الشيوعية التي سيطرت على روسيا سيطرة تامة في العصر التالي لعصر ديستوفسكي(!!)

وقد اعتبر المؤرخون للحياة العقلية أن أدب ديستوفسكي نفسه كان من الأسباب التي هيأت الأجواء للثورة الشيوعية بعد حين.

(٣)

من الطريف أن هذا الأديب عاش تجربة إنسانية صعبة لم يمر بها غيره من الأدباء وإن كنت قد سجلت في كتابي « الوفد والعمل السري في ثورة ١٩١٩» تجربة مصرية مشابهة رواها الدكتور محمد مظهر سعيد في كتابه « سجين ثورة ١٩١٩»، وقد روي الدكتور مظهر سعيد التجربة التي مر بها هو وبعض أقرانه من ثوار ثورة ١٩١٩ على نحو بديع.

كان ديستوفسكي قد انضم (١٨٤٧) إلى جماعة سياسية محظورة، مما أدي إلى القبض عليه، والحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص لكن الحكم خفف إلى النفي إلى سيبيريا بعد أن وقف هو وزملاؤه في ساحة الإعدام في انتظار تنفيذ الحكم،وقد أصابته هذه المحنة بصدمة عصبية ظل أثرها واضحا في أدبه، وإن كان فيما بعد قد نال العفو.

تظهر في أعمال ديستوفسكي نزعة دينية واضحة ترتبط بالخير والشر، والثواب والعقاب، وحتمية انتصار الحق والخير، ولا تزال أعماله تحظي بالقبول لتناولها الفني الجيد

للقيم الإنسانية بطريقة محببة إلى النفس، وانحيازها إلى الفقراء والمظلومين،وقدرتها على التحليل النفسي العميق، والتصوير الإنساني الطابع دون غرابة أو اعتماد على خيال بعيد عن الواقع.

وقد تأثر تكوين ديستوفسكي الأدبي بروايات تشارلز ديكنز، لكنه لم يقف عند حدودها، وإنما زاد عليها ما تميز به من قدرة على التحليل النفسي، وإدارة الصراع الملحمي بين الخير والشر، وتصوير الحالات النفسية المختلفة، وتجسيد الأفكار المسيطرة على أصحابها والدافعة لهم إلى سلوكيات تبدو غير متوازنة.

وقد أجاد ديستوفسكي تصوير حالات عدم الاتزان النفسي والاضطرابات السلوكية إلى حد جعل بعض قرائه ممن لم يخبروا هذه الحالات يتصورونه هو نفسه غير متزن، ويمثل هذا في رأيي قمة القدرة التعبيرية.

(٥)

ولد ديستوفسكي في موسكو، ودرس في الأكاديمية الهندسية في بطرسبرج، وانضم كما أشرنا إلى جماعات سياسية صغيرة محظورة، وعاني من الاعتقال ثم من التعرض للإعدام.

مارس الكتابة الصحفية، وكتب في الصحف السياسية بانتظام في السنوات الأخيرة من حياته، وكان قد أصدر بالاشتراك مع أخيه ميخائيل مجلة «العصر»، لكنها لم تلق النجاح، فاضطر إلى الاستدانة من الناشر، ولما عجز عن سداد ديونه تعاقد معه على أن يوفي دينه قصصا وروايات، وتحول إلى ما يشبه آلة لإنتاج القصص، وهو الوصف الذي وصفه به أيضا (من باب الطرافة) أدباء آخرون غزيرو الانتاج.

وفي هذه الفترة ساعدته «آنا سنيننكينا» وكانت تتعلم الاختزال، وإليها يعود الفضل في إتمامه لقصة «المقامر» في الموعد المعين، وقد تطورت علاقتهما إلى الزواج بعد إتمام القصة، لكن الديون تزايدت عليه، وظن أن المقامرة قد تكفل له حلا لمشكلته، (على نحو ما يفعل كثير من الأدباء المصريين الآن مع البورصة) فهجر وطنه هروبا من الدائنين، وبدأ المقامرة، لكنه لم يصادف الحظ الذي كان ينتظره.

اعتمد ديستوفسكي على زوجته التي أخلصت له، وساعدته في عمله، كما ساعدته بمالها، وكانت تعينه على اختيار موضوعات قصصه وكثير من تفصيلاتها، وبفضل العمل المتصل تحسنت أحواله حتي احتل في أخريات أيامه مكانة مرموقة بفضل قلمه وكتاباته.

(٦)

أول أعماله المشهورة «شعب فقير» وقد نشرت (١٨٤٥)، ولما استأنف الكتابة بعد فراغه من الجيش أصدر أنجح رواياته: «الجريمة والعقاب» (١٨٦٦)، و«الأبله» (١٨٦٨ ١٨٦٩)، و«الممسوس» (١٨٧١ ١٨٧٢)، و«الأخوة كرامازوف» (١٨٧٩ ١٨٨٠).

أفضل ما كتب عنه بالعربية في نظري هو كتاب الأستاذ حسن محمود الذي عنوانه : ديستوفسكي، وهو الكتاب الذي صدر عن دار المعارف في سلسلة اقرأ (١٩٤٣).

الفصل الثامن

مرشحو الرياسة الدون كيشوتيون

(١)

سألتني أكثر من صحيفة عن أصدق وصف لمرشحي الرئاسة المحتملين، وكنت أجيب بما أعتقده في كل واحد منهم، ثم دفعت إجاباتي أحدهم ليسألني عن الصفة التي أري أنها تجمعهم جميعا، فأجبت بلا تردد: إنها صفة الدون كيشوتية. وانهالت الأسئلة عن الأسباب التي دعتني إلى هذا الرأي . وعن حقيقة ومكانة دون كيشوت في الأدب العالمي.

ولاشك عندي في أن رواية دون كيشوت تمثل عملًا من الأعمال الأدبية العالمية التي حظيت بالشهرة والذيوع والخلود معًا، ولا تزال تحظي بالانتشار والترجمة، وقد ترجمت إلى لغات العالم جميعا المنتشرة وغير المنتشرة، وترجمت في كل لغة من هذه اللغات أكثر من مرة، كما طبعت الترجمات المختلفة طبعات عديدة..

ومع أن هناك أسبابًا عديدة لهذا التفوق الذي أحرزته الرواية، فإن فكرتها الأساسية تأتي في مقدمة أسباب ما حظيت به من نجاح وخلود، وتتلخص الفكرة في أن بطل الرواية (وقد صوره سرفانتس في صورة أحد ملاك الأراضي الإسبان) تأثر تأثرا شديدا بما قرأه في الروايات، والحكايات المتواترة عن الفرسان النبلاء في العصر القديم، وأحب أن يكون واحدًا منهم، وأن يحقق ما حققوه، ومن ثم فإنه اتخذ لنفسه لقبا من طراز ألقابهم،

(٢)

كان هذا اللقب «دون كيخوت دي لامانشا»، وارتدي زي الفرسان ودروعهم، واصطحب تابعه «سانشو باترا»، وأخذ طيلة طريقه يتصور نفسه مقبلا على معارك حربية

حقيقية، فإذا رأي طواحين الهواء ظن أنها العمالقة، وأخذ يصارعها وهي تنسحق أمام قوته فيعمد إلى غيرها.. وهكذا.

وكان دون كيشوت إذا رأي قطعان الأغنام في المراعي تصور أنها الجيوش التي ساقها أعداؤه لمحاربته، وأخذ يطيح فيها تقتيلا كأنه الفارس الأوحد، واستمر حاله على هذا النحو، مع حديث متصل يتحدث فيه إلى نفسه وإلي تابعه تحت تأثير عقيدته الزائفة التي استولت عليه تمامًا.

وقد نشر سرفانتس «Cervantes» الجزء الأول من هذا العمل عام ١٦٠٥، ولقي رواجا عظيما دفعه إلى أن يصدر الجزء الثاني بعد عشر سنوات (١٦١٥)، فلقي من مديح النقاد أكثر مما لقيه الجزء الأول، ونظرا لأن إسبانيا كانت تعيش عصرها الذهبي في ذلك الوقت، فقد لقيت الرواية الانتشار والقبول في الحضارات الأوروبية المجاورة، في وقت لم يكن الفن الروائي فيه بعيدًا عن اهتمام الجماهير في حياتها العديدة.

(٣)

وقد ظل النقاد ومؤرخو الأدب (بل كثير من القراء كذلك) ينظرون إلى الرواية على أنها قصة فكاهية تتناول مغامرات رجل مسكون بفكرة خاطئة، وربما كان أقرب إلى الجنون منه إلى العقل والاتزان، وقد أكدت أحداث الرواية على جنون البطل كما أعادت إليه عقله قبل نهايتها.. لكن الرواية نفسها أصبحت منذ أوائل القرن التاسع عشر بمثابة النموذج الكلاسيكي للأبطال «الروائيين» الذين لا يتوافقون مع زمانهم.

وعلى خلاف الشائع فلم تكن «دون كيشوت» هي العمل الأول ولا الوحيد لصاحبها دو سرفانتس سافيدرا (١٥٤٧- ١٦١٦)، وإنما كان له قبل هذا إسهامات مسرحية، كما أصدر في مرحلة مبكرة رواية «لاجالاتيه» (١٥٨٤).

ويمكن القول إن خبراته المتعددة في الحياة قد ساعدته على التعبير المتميز عن شطحات الخيال، فقد ولد لأسرة من النبلاء، لكنها كانت تعاني الفقر، وأحب الشعر، لكنه ألزم بالدراسة، وأولع بالقراءة، لكن دراسته كانت تثقله بمناهجها.

(٤)

رحل سرفانتس إلى روما ابتغاء الثراء لكنه لم يحققه، وانضم إلى الحملة الإسبانية في مواجهة العثمانيين على أرض قبرص، فأصيب في المعركة وأدت الإصابة إلى شلل يده اليسري، ثم تعرض للأسر على يد المغاربة في الجزائر، وقضي في السجن خمس سنوات، واستقر به المقام أخيرا في مدريد، حيث تزوج وعاش معيشة أقرب إلى الفقر، وإن كان قد لقي معونة بعض أصدقائه من ذوي السلطة.

الفصل التاسع

هل الحاكم المستنير الذي نريده هو المأمون؟

(١)

كنت ولا أزال أرى المأمون (المتوفى ٨٣٣ م) بمثابة الحاكم الأنسب لمصر بعد ثورتها في ٢٠١١ فهو حاكم إسلامي نادر المثال، إليه وإلي سعة أفقه يرجع الفضل في جزء كبير من الإنجاز الحضاري الذي حققته الدولة الإسلامية، وقد مكنته سعة أفقه من أن يفتح لأمته أبواب نهضة ارتفعت بها إلى المكانة الأولي في العصور الوسطى.

هو ابن الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد، وكان هارون قد رتب الأمور، بحيث يكون المأمون وليًا لعهد ابنه الأكبر الأمين، غير أن الأمين بعد توليه الحكم أراد أن يغير الترتيب، وأن يأخذ العهد لابنه هو، فنشبت الحرب بين الأخوين وانتهت بقتل الأمين بعد فترة قصيرة من خلافته.

عُني الخليفة المأمون منذ بداية حكمه بالعلم والفلسفة، وآمن بأهمية الترجمة وجدواها، وبذل جهدًا كبيرًا في ترجمة التراث اليوناني المتاح كله، وفي تصحيح الترجمات وتهذيبها بل إعادة الترجمة في بعض الأحيان، وعُني بأن ينجز هذا من خلال مؤسسة علمية ذائعة الصيت الآن كانت هي «بيت الحكمة» التي كانت مؤسسة موجودة من قبل عهده، ولكنها تحولت في عهده إلى أكبر مؤسسة ثقافية فاعلة عرفها العالم، فقد أصبحت بمثابة جامعة رفيعة المستوي، ومكتبة نادرة الوجود، وديوان للترجمة والتحرير والنشر واسع النشاط والأثر، وكان العلماء المسئولون عن إدارة بيت الحكمة من أرفع مستوي عرفته البشرية.

(٢)

لم يكن المأمون يضع أي حد للإنفاق على العلم والمعرفة والفلسفة والترجمة، بل إنه ضرب أندر مثل في التاريخ لهذا الاهتمام السياسي بالمعرفة، وهو ما تجلي على سبيل المثال في تقدير مكافآته للعلماء والمترجمين على جهودهم العلمية، وقد كانت هذه المكافآة توازي وزن الكتاب المترجم ذهبًا.

وفضلًا عن هذا فإن المأمون لم يكتف بما جلبه أسلافه من كتب أجنبية، وما حوته المكتبات من هذه الكتب، ولكنه كان يرسل البعثات خصيصًا لاقتناء هذه الكتب، وإحضارها من كل مظانها في البلاد السابقة في الحضارة أو التأليف أو الترجمة..

ولولا جهد المأمون ما أمكن للحضارة الإنسانية السابقة عليه أن تتصل بعصر النهضة الحديثة عبر جسر الحضارة الإسلامية،

ويكفي في هذا المجال أن أشير إلى النموذج الآخر الذي ضاع فيه اتصال الحضارة الإنسانية بكثير من أسرار الحضارة المصرية القديمة كنتيجة مباشرة لانعدام وعي المسئولين عن الحضارات التي تلت الحضارة المصرية القديمة مباشرة، أما في حالة المأمون فقد حفظت جهوده للحضارة الإنسانية أقصي ما يمكن من قيم الحضارات السابقة، وذلك في وعاء فكري ضخم استخدم اللغة العربية بعد تطويعها إلى أقصي درجة لاستيعاب كل هذا التراث السابق عليها، وترتيبه وتطويره ثم الإضافة إليه.

(٣)

وقد انعكست آثار هذه النهضة الفكرية التي بناها المأمون على أسلوبه هو نفسه في الحكم وإدارة الدولة، وتم هذا الانعكاس بطريقة سلسلة مباشرة من دون رفع شعارات أو أيدولوجيات: ذلك أن انتشار العلم والحضارة وتقدير العلماء والمترجمين قد خلق آليات جديدة للحراك الاجتماعي نشأ عنها تطوير ذكي ومتدرج للعلاقات الاجتماعية والتكوين النخبي، وهو ما أدي إلى تراجع العنصرية العربية في تقييم الشرف والحسب والقيمة الاجتماعية تبعًا للنسب والقرابة والأصول..

ونشأت بفضل سلوكيات المأمون، بديلًا عن هذا معايير جديدة، هي معايير الدول المتحضرة والمتفوقة حضاريًا التي تعلي من قيمة العمل والعلم والسلوك والإنتاج، وتتنازل عن المعايير التقليدية الموروثة.

وهكذا انتشر الزواج المختلط دون أي نوع من الحرج، كما تقبل المجتمع فكرة تعدد الزوجات وقدّر آثارها الإيجابية، وصيغت العلاقات الاجتماعية صياغة أرقي وأكثر فائدة للمجتمع، وتحرر المجتمع الإسلامي من بقايا نزعات جاهلية حاربتها تعاليمه صراحة، وبذل الخلفاء السابقون جهدهم من أجل إرساء تعاليم الإسلام فيما يتعلق بها، حتي جاء المأمون، فأنار بالمعرفة عقليات المسلمين، حتي تمكنوا من تفهم الجوهر العميق للعلائق الاجتماعية في دينهم..

ويمكنني القول أن أحدًا من الحكام في تاريخ الحضارة الإنسانية لم يحقق النجاح الذي حققه المأمون في خلق الطبقة الوسطى، وتمكينها من مقادير الحياة السياسية والاجتماعية، مما أدي إلى نهضة حضارية أفاد منها الإسلام على مدي قرنين أو ثلاثة قرون تالية، ولا تزال الإنسانية كلها تفيد من دوره الحضاري البارز حتي يومنا هذا.

الباب الثالث

تصورات هادفة

الفصل العاشر

تحديات الإصلاح الاقتصادي في البرنامج الانتخابي الرئاسي

لست في صياغتي لهذه التحديات مبدعًا ولا منشئًا، وإنما دوري فيها هو دور الفنان في كل حضارة وهو الانتقاء، وهو انتقاء لا يعرف التلفيق، ولكنه ينبني عن تأمل في عناصر التكوين ويختار منها ما يراه صالحًا للبناء عليه في مقابل ما لا يراه صالحًا للإنجاز أو الاعتماد عليه، وفي هذا الصدد فإني أتصور البرامج الذكية قائمة على تطوير الصواب ونفي الخطأ وتشكيل الوعي والفهم على حد سواء، وتطوير القانون والارتقاء بالممارسة القيادية لمفاهيم التنمية والتقدم، وفي هذا الإطار فإنني أدعو إلى:

– أول ما ينبغي العمل من أجله هو الإشراك الكامل للشعب في التوجهات الاقتصادية والقرارات الاقتصادية ذلك أن اقتناع الشعب بمصلحته على مستوي الفرد والمجموع هو الكفيل بتحقيق النمو الاقتصادي ومن باب أولى الإصلاح الاقتصادي .

– لتكن الفلسفة الحاكمة هي « التنمية الممكنة « بكل ما يعنيه ويوحي به هذا المصطلح الذي وضعته عنوانا لكتاب صدر ٢٠٠٠ متضمنا ملامح من رؤيتي لقضية التنمية في مصر.

– أول الأمراض التي لابد من علاجها قبل الانطلاق في اي سياسة اقتصادية وتنموية هو الخلاص السريع من أسر وجاذبية الاستثمار العقاري الذي أصاب استثماراتنا الأخري بالشلل نتيجة استحواذه علي التمويل المتاح من مدخرات المصريين ، ولابد من خطوات مجتمعية جبارة في سبيل التخلص من هذا الأخطبوط الذي استأثر بالمدخرات والتمويل وأدخلنا في دائرة مفرغة

– عقبات التنمية أصبحت مشخصة جيدا وحلولها تكاد تكون محسوبة ومرسومة ؛ وقد لخصتها في كتاب صدر بهذا العنوان في ٢٠١٣

– المسارعة في البدء في كل استثمار كثيف العمالة ينبغي أن يكون هو التوجه الحاكم للاولويات قبل أن تتفاقم البطالة والبطالة المقنعة.

– استعادة الاقتناع الشعبي والبرلماني بالإلحاح على الإنجاز المتكامل للبنية الأساسية وتعويض ما انقطع منها.

– الانتصار لفكرة أن الحضارة اتصالات والعمل على رفع كفاءة شبكة الطرق والاتصالات بما يحقق إمكانات الاستثمار للموقع الجغرافي والاتصالات الاقليمية؛ والتوظيف الأقصي لإمكانات وموارد وخبرات قطاعات التشييد في الطرق والأنفاق وشبكات المترو والصرف الصحي والحدائق والمحميات والمتنزهات وصيانة التراث المعماري والحضاري.

ـ إعادة هيكلة النظم الحاكمة للتصنيع المحلي والمنتجات الصناعية المصرية، وذلك بتقليل اعتماد هذه الصناعات على استيراد المكونات، وهو الوضع المأساوي الذي أدي إلى أن أصبح العجز في الميزان التجاري يزداد مع ازدياد الإنتاج الصناعي المصري، حتي إن الهيكل الصناعي الوطني الآن أصبح يمثل ما هو أقرب إلى العبء على الاقتصاد، بدلًا من أن يمثل القوة الدافعة له.

والحل الأمثل والوحيد هو تنمية الاعتماد على المعرفة والتكنولوجيا والابتكار إلى أقصي حد ممكن، والانتباه إلى حقيقة أن المعرفة هي أفضل المزايا التنافسية، وليست العمالة الرخيصة ويقتضي هذا أن تتوازى العناية بالعلم مع العناية بالتكنولوجيا، وأن تتوازى مكافأة فكرة الاعتماد على الذات مع فكرة التجديد في اختيار البدائل الأجنبية المتاحة.

ـ تقليل الاعتماد على التصدير والمظهرى الذي يمكن وصفه دون تجمد بأنه التصدير المكرس للفقر، في ظل المباهاة بأرقام الدولارات التي يحققها، وهي السياسة الخبيثة والقاسية التي اعتمدتها حكوماتنا في حقبة بدعم التوجه إلى الرأسمالية المتوحشة حتى إنها قررت أن تشجع هذا النوع من التصدير المظهرى الصادرات بمبالغ باهظة (دخلت معظمها عبر قنوات مستطردة ومستطرقة موازية إلى خزينة مستثمرين أفاكين)، بينما انخفض مستوي دخل العاملين في الصناعات المصدرة التي اعتمدت على ثلاثة محاور مؤذية للتنمية المستقلة والمستدامة بل والمعقولة: استيراد مكون أجنبي، وإيذاء البيئة لعناصر التلوث المعروفة التى يرغب الأوروبيون في التخلص منها ومن مصانعها، واستغلال اليد العاملة بأقل أجر ممكن.

ـ تشجيع تنمية التكنولوجيا بكل مراحلها: على مستوي التعليم العام، والتكنولوجي، والجامعي، والتأهيل، وإعادة التأهيل، والتدريب المستمر والمتجدد.

ـ إعادة الثروة إلى ملعب من يمكن وضعهم بأنهم نواة طبقة أو فئة المنتجين الحقيقيين، بعد أن تركزت في العقد الأخير فى ملعب المضاربين في الاستثمار العقاري، والأوراق المالية.

ـ دمج نشاط البورصة وحركتها اليومية في الاقتصاد القومي، أي إخضاع أرباحها لما يخضع له النشاط التجاري من ضرائب، وسرعة إيقاف السياسة القاتلة التي سمحت للنشاط التجاري في البورصة من خلال تشريعات جائرة بالإعفاء من الضرائب، كأنما البورصة دولة خارج الدولة، وهكذا حقق البعض أرباحا بالمليارات دون أن يدفعوا عنها مليما واحدا للخزانة العامة، بينما ميادين التعامل والنشاط في هذه البورصة لا تخرج عن إطار شركات الشعب التي تمت خصخصتها بأسعار زهيدة، ثم وضعت لها واجهة، وبيعت لتفقد مصر أصولها من ناحية، ثم لتفقد مصر أيضا حقها في أرباح تجارة جرت على أرضها.

ـ الابتعاد السريع والذكي (في كل التشريعات والإجراءات اليومية) عن تقوية أو تعزيز السياسات المكرسة للمضاربة، والتوجه فى مقابل ذلك إلى السياسات المشجعة على استخدام الثروة لتوليد مزيد من الثروة، ويقتضي هذا بلاموارية مراقبة يقظة لسياسات الإثراء السريع، لا لاستئصالها أو ابتزازها على نحو ما هو حادث وإنما لتوجيهها إلى ما هو أفيد للمجتمع ولها ولحمايتها من نزق الإثراء وما يتبعه من فساد إذا لم تتوافر ثقافة بناء الثروة.

ـ التوجه الجاد نحو طرق مضمونة أصبحت مهجورة بلا مبرر، وعلى سبيل المثال فإننا قد أصبحنا فى حاجة إلى فرض ضرائب على الأرباح الرأسمالية للأسهم عند التصرف فيها بالبيع، وتقل هذه الضرائب حتي تنعدم إذا ما تم التصرف بعد عامين، وذلك لتشجيع الاستثمار طويل الأجل، ودعم موقف المنشآت الإنتاجية، وتقليل المضاربة إلى أقل حد.

ـ العمل بجدية وعلى التخلص من التشريعات التي كرست المكسب عن طريق الكسل، وأبرزها الاعتماد على سياسات تسقيع الأراضى.

ـ الانتباه بصفة يومية وفى كل قرار إلى مقصد سام من مقاصد الحكم وهو إعطاء الأولوية المطلقة لرفع مستوي المعيشة العمومي، والدعم الخفى للمقومات المساعدة على سلامة النسيج الاجتماعي قبل إقرار أي خطة، أو سياسة، أو تشريع، وإيقاف كل سياسة ينشأ عنها أي عنصر من عناصر الإضرار بمستوي المعيشة، أو سلامة النسيج الاجتماعي حفاظًا على المجتمع وتكوينه وعلاقاته.

ـ رفع قيمة فكرة الادخار الوطني، والسلوك المصاحب لهذه الفكرة، بما يمكن من الإسهام الشعبي والفردي في اقتصاد الوطن، وبحيث يري المواطن المصنع، فيشير لابنه بأنه يملك خمسة من المليون منه!! وأنه يطمح أن تتحول هذه الخمسة في المليون إلى خمسمائة في المليون خلال سنوات.

ـ العودة إلى تبجيل وتقديس وإعلاء شأن عقلية «الأحرار» التي تساعد المواطنين على استقلال الإرادة الفردية في مقابل سياسات الرأسمالية التي تجعل السيادة لرأس المال والمؤسسات المالية والاقتصادية، ويقتضي هذا الفكر الإسراع فى العدول الذكى عن كل سياسة تستهدف تركيع المواطن وإذلاله بالقروض المستمرة من أجل بقائه بشحمه ولحمه رهنا للبنوك والبيوت المالية التي تستقطع منه كل شهر ما يسدد به ما اقترضه من أجل مستلزمات الحياة، كالسيارة، والبيت، والسلع المعمرة، والانتباه إلى أن أثرياء العصور الماضية وأفراد الطبقات الوسطى لم ترهق موازناتهم بمثل ما يرهق به المواطن البسيط اليوم من ارتباطات بنكية ومصرفية من أجل أن تحقق البنوك مكاسب وأرباح ضخمة باستغلال تطلعاتهم إلى الحياة والرفاهية، وبدلًا من أن نصل إلى غاية نبيلة وهى أن يحس المواطن أنه يشارك في الملكية، فإننا انزلقنا إلى الوضع الذى أصبحنا نسمع فيه كل مواطن وهو يقول إنه سيظل يدفع قسط هذه السيارة حتى خمس سنوات قادمة، وبالطبع فإنه سوف يكون بعدها قد أصبح في حاجة إلى سيارة جديدة.

ـ وضع ضوابط صارمة تحول دون ما بدأنا نعانى منه (بنعومة وتدرج) من استيلاء الشركات متعدية الجنسية على شركاتنا الوطنية، العامة والخاصة على حد سواء، والعمل على حل مشكلات أصحاب الأعمال المصريين حتى لا يلجأوا إلى بيع مؤسساتهم الوطنية، للخلاص من المشكلات التي تضعها الحكومة في وجه المواطن المصري، بينما تعجز عن السيطرة بها على المستثمر الأجنبي!!

الفصل الحادي عشر

تحديات التنمية الاجتماعية في البرنامج الانتخابي الرئاسي

• إذا جاز اختيار تعبير تاريخي لتلخيص جوهر البرنامج الرئاسي فإني أفضل تعبيرا نال شهرة واسعة في منتصف القرن العشرين هو القضاء على الثالوث : الفقر والجهل والمرض.

بيد أني أفضل أن تكون مقاربة البرنامج الرئاسي معتمدة على الأسلوب غير المباشر الكفيل بالقضاء على هذا الثالوث قضاء متصلا ومتواصلا (ومستداما) ذلك أن هذا الثالوث قابل للعودة في أي لحظة ؛ كما أنه هدف متحرك (و متولد ومتوالد) وهو ما يقتضي أن تكون وسائلنا متجددة الانتباه إلى كل الصور المنشئة للتدهور الاجتماعي .

• و من باب الاقتصاد في القول والإيضاح فإني أفضل الانتفاع بالتجارب العالمية في هذا الميدان وهي التجارب التي توصلت بعد خبرات ممتدة ومتعمقة إلى بلورة الجهود وتركيزها في الارتفاع الدائب بمستوى الخدمات العامة وتوسيع نطاقها .

• و سأركز فيما أقدمه على إبراز توجهات حاكمة في ميداني التعليم والصحة ؛ لكنني أحب قبل هذا أن أؤكد على ماعرف عني الشغف بتكرار الحديث عنه من أن كل هذا يأتي بعد توفير المساكن والاتصالات والمواصلات والطرق وإصحاح البيئة .

• في جملة واحدة يتمثل هذا التحدي في الوصول إلى أقصي جودة للخدمات العامة المقدمة إلى المواطن

• الوصول بمستوي التعليم العام والحكومي، تدريجيا، ولكن بخطوات واسعة وسريعة إلى مستوي التعليم المصرى المتاح في الثلاثينيات من القرن العشرين: مدارس منضبطة.. منهج ذكي.. كتب نموذجية.. مدرسون متميزون.. امتحانات حقيقية.. برامج أنشطة ورحلات.. تغذية جيدة.. أقسام داخلية.

• مكافحة التسرب من التعليم من خلال أن تكون أفضل فرصة معيشية هى تلك التي تتقدم لأبنائنا (حتي ١٥ سنة) وذلك من قبيل رفع مستويات المدرسة، من خلال التغذية والأنشطة الرياضية والترفيهية، بما في ذلك إتاحة وسائل الانتقال المجانية أو شبه المجانية للتلاميذ، والعمل على تحويل المدارس إلى «جنات حقيقية» محببة للأطفال ترفع عن كاهل أسرهم معظم بنود الإنفاق اليومي.

• عدم خضوع التعليم والصحة لقوي السوق والتجارة والعرض والطلب بأي منطق (مبرر أو غير مبرر) حتي في المدارس الخاصة بكافة أنواعها، وأن يعمل البرنامج الرئاسى ومن ثم البرنامج الحكومى على تحقيق هذا الهدف الذكى النبيل بكل ما يتطلبه الإنجاز المستقبلى من تشريعات ذكية تعفي مؤسسات التربية في كل صورها من كافة الضرائب بما فى ذلك كل أطياف المدارس، وكل مؤسسات التعليم (بما فيها معاهد تعليم اللغات، وتعليم الكمبيوتر، والجامعات الخاصة، وتعليم أصول الحرف والمهن والمهارات، والمدارس الدولية والمحلية.. إلخ) بل أن يكون الهدف هو أن تعمل الحكومة على أن تقدم الدعم غير المباشر لكل هذه المؤسسات مهما تكن طبيعة ملكيتها خاصة أو فردية.

• تقديم معونات حكومية مباشرة لأي مؤسسة غير حكومية تؤدى أية وظيفة تعليمية أو تؤدي أي دور في رفع المستوى التعليمي أو الفكري أو التقني لأبناء الوطن فى أى ربع من ربوعه.

• تطوير آليات وتقنيات وإرشادات الزراعة وتنمية المناطق الريفية والصناعات الغذائية، وتقديم أقصي دعم ممكن للفلاح المنتج بما لا يقل عن أفضل دعم متاح في المجتمعات الأوروبية والأمريكية، وإتاحة البذور الجيدة بما يشبه المجان، وإتاحة الأسمدة والعلاجات الوقائية بما يشبه المجان أيضا، وضبط استخدام المبيدات حفاظًا على صحة الفلاح والمستهلك معا.

• توفير العلاج المجاني (وما يتطلب من فحوص) كامل المجانية في المستشفيات الجامعية، والأميرية، والعامة، والمركزية، ومعاهد الأبحاث من خلال سياسات واضحة

ومعلنة تربط تلقى العلاج مباشرة بالرقم القومي الذي يحدد المستشفيات التي يلجأ إليها كل مواطن، ويحدد لكل مواطن طبيب العائلة الذى يقدم له النصح، ويوجهه إلى المكان الكفيل بتقديم الخدمة الصحية له بالمجان، والعمل على أن تكون الخدمة المجانية المقدمة من خلال هذا النظام على مستوي الخدمة المقدمة في النظام البريطاني، وفي الدول الإسكندنافية، والبعد تماما عن إضاعة وقت الدولة والمواطنين في الحلقات اللانهائية لمشروعات لا محل لها (تتحدث عن سياسات تأمين صحي معقدة لا جدوى منها ما دمنا قد جعلنا العلاج مجانيًا) تنشغل بالإداريات، والبيروقراطية، إلى حدود قصوى على حساب تقديم المضمون، وهو الخدمة الصحية الجيدة والعاجلة التي تكفل توفير الموارد بعلاج المرض في بداياته بدلًا من علاج مضاعفات فائقة التكاليف.

• إبعاد ممارسات العمل فى مجال الصحة بكل صورها عن الخضوع بأى صورة لمنطق السوق والبيع والطلب حتي في المؤسسات الصحية الخاصة التي تستهدف تحقيق المكسب من خلال علاج المرضى القادمين لتلقي أى علاج في مصر، والتي لابد من أن تعامل بذكاء وتقدير من خلال منطق الحرص على صورة مصر المتحضرة الحانية القادرة على تقديم أفضل علاج بأقل تكلفة حتى لغير أبنائها.

الباب الرابع

حسابات برلمانية

الفصل الثاني عشر

الحكومة الائتلافية التي كان ينبغي أن يشكلها الإخوان

نشرت الصحف هذا المحتوي الذي غردت به في مواقع التواصل الاجتماعي، لكنها لدواع مهنية مفهومة اختارت له عنوانا صحفيا: «تسربات الحكومة الائتلافية التي سيشكلها الإخوان حسب الدكتور محمد الجوادي المؤرخ والكاتب الصحفي وعضو «مجمع اللغة العربية».

- د. محمد مرسي نائب رئيس الوزراء ووزيراللإدارة المحلية.
- المستشارحسام الغرياني رئيسم محكمة النقض وزيرًا للعدل.
- د. محمد رشاد البيومي وزير الدولة للآثار.
- د. محمود غزلان وزيرًا للثقافة، ويتولي تسبير وزارة الإعلام الملغاة.
- د. خالد عبد القادر عودة وزيرا للبحث ا لعلمي.
- حسن مالك وزيرًا للتجارة والصناعة.
- د. حسن عبد اللطيف الشافعي وزيرا للأوقاف.
- صلاح عبد المقصود وزيرًا للشباب والرياضة.
- د. مهندس طارق وفيق وزيرًا للمجتمعات العمرانية الجديدة.
- د. مهندس أحمد سليمان وزيرا للطاقة للبترول والكهرباء.
- اللواء محمد العصار وزير دولة للإنتاج الحربي والمصانع الحربية.
- المهندس سعد الحسيني وزيرًا للمالية.
- د. عصام العريان وزيرًا للخارجية.

- د. عمرو دراج وزيرًا للإسكان.
- د. محمود أبوزيد وزيرًا للصحة.
- د. محمد ماجد إسماعيل خلوصي وزيرا للأشغال وشئون السودان.
- د. نادية محمود مصطفي وزيرًا للاستثمار.
- د. أحمد إمام وزيرًا للتموين.
- د. حلمي الجزار وزيرًا للمصريين بالخارج والعمل والتأهيل.
- د. شريف أبو المجد وزيرًا للطيران المدني والنقل.
- د. عصام حشيش وزيرًا للاتصالات وتكنولوجيا المعلومات.
- د. رفيق صمويل حبيب وزيرا للسياحة.
- جورج إسحق وزيرًا للمجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية.
- د. أميمة كامل وزيرة للتعاون الدولي.
- محسن راضي وزيرًا للزراعة والثروتين الحيوانية والسمكية.
- د. منال أبو الحسن وزير دولة لشئون البيئة.
- أسامة ياسين وزيرا للشباب والرياضة.

ونحن نعرف أن المجلس الأعلى للقوات المسلحة لم يمكن حزب الحرية والعدالة الحاصل على أعلى نسبة من المقاعد من تشكيل الحكومة فى ذلك الوقت، ولا بعده حتى انتخب الدكتور محمد مرسى رئيس للجمهورية وتشكت وزارة هشام قنديل فى أغسطس ٢٠١٢ وأجريت عليها تعديلات متتالية.

ونلاحظ أن وزارة عهد الرئيس مرسى لم تستوعب من هذه الترشيحات إلا ثلاثة فقط اثنان منهما فى غير الوزارات التى اخترناها لهم وواحد فقط هو الأخير فى الوزارة التى اخترناها له، كما أن عهد الإخوان فضل الاستعانة بالمستشار الغريانى فى رياسة لجنة وضع الدستور ثم فى رياسة المجلس القومي لحقوق الإنسان وأخيرًا فإن اللواء العصار أصبح نائبًا لوزير الدفاع فى وزارة الدكتور هشام قنديل، ثم وزير دولة للإنتاج الحربى بعد فترة من وقوع الانقلاب العسكرى.

الفصل الثالث عشر

هل غاب القضاة للأبد عن الترشيح للانتخابات البرلمانية؟

(١)

كان موسي صبري، كما نعرف، صحفيًا بارزًا وجريئًا ومؤثرًا،وكان أيضًا حقوقيًا من خريجي مدرسة الساسة والوزراء. لفت نظره في السبعينيات استقالة عدد من رجال القضاء للترشيح لمجلس الشعب، كان السبب في استقالة القضاة غريبًا بعض الشيء، وهو رغبتهم في ترك القضاء للمحاماة عبر الترشيح في البرلمان.

هاجم موسي صبري هذا السلوك، وفوجئ باستياء رجال القضاء ووزير العدل، وقيل له إن القضاة أصبحوا مظلومين في ظل ارتفاع معدلات التضخم وثبات الأجور وزيادة الأعباء. اعتذر موسي صبري عن موقفه، وشرح القضية.

بدأت الدولة تنتبه إلى ضرورة إنصاف العدالة، وخطت في هذا الطريق خطوات واسعة.

(٢)

شاءت الظروف أن تزداد أعباء القضاة مرة بعد أخري في ظل ثقة الجماهير في نزاهتهم وقدرتهم على الحسم، قضت المحكمة الدستورية العليا بضرورة إشراف القضاة على كل خطوات الانتخابات.

كان الحكم الذي صدر عام ٢٠٠٠ كفيلًا بحل مجلس الشعب في آخر أيامه، تأجل نشر الحكم في الجريدة الرسمية حتي ينفض دور الانعقاد البرلماني، أجريت انتخابات ٢٠٠٠ ومن بعدها انتخابات ٢٠٠٥ بإشراف القضاء. أصبح القضاة مسئولين عن كل شيء في

الانتخابات، أدت الممارسة إلى مداولات ومناقشات واختلافات في وجهات النظر..

مع هذا كله غاب القضاة عن الترشيح للانتخابات البرلمانية.

(٣)

للقضاء شموخه لكن التصدي للترشيح في البرلمان شموخ أيضًا. نشكو من نقص الكوادر التشريعية بين أعضاء مجلس الشعب الذي هو السلطة التشريعية، لكننا نتجاهل العمل على زيادة هذه الكوادر.

في كل الليبراليات حرص شديد على أن يكون من البرلمانيين رجال قضاء عاشوا من أجل عدالة معصوبة العينين، لكننا نكتفي بعدد قليل من المحامين، وبعدد أقل من أساتذة القانون، وبواحد أو اثنين من رجال القضاء السابقين.

ستكون خطوة جبارة إذا نجحنا في الانتخابات البرلمانية القادمة في تشجيع وصول عشرة من رجال القضاء الشبان إلى البرلمان.

الفصل الرابع عشر

كيف تزايد عدد أعضاء البرلمان المصري؟

(١)

بدأت الانتخابات البرلمانية بعد ثورة ١٩١٩ بنظام انتخابي اعتمد على التمثيل النسبي لعدد السكان، واتخذت قاعدة واضحة: أن يمثل النائب الواحد مائة ألف من السكان وهكذا كان عدد أعضاء البرلمان الدستوري الذي أجريت انتخاباته في نهاية ١٩٢٣، وانعقد في مارس ١٩٢٤ محددًا بمائتين وأربعة وعشرين (٢٢٤ عضوًا)، وهو العدد الذي أجريت عليه أيضًا انتخابات برلمان ١٩٢٤ و ١٩٢٥.

وكانت انتخابات ١٩٣٠ التى أجريت فى وزارة عدلى يكن باشا فرصة لزيادة عدد اعضاء البرلمان بما يتناسب مع زيادة عدد السكان فى القطر المصري، وهكذا أصبح العدد ٢٣٥ عضوًا أي بزيادة أحد عشر عضوًا.

لكن اسماعيل صدقي بطبعه القاسي خفض هذا العدد في البرلمان الخامس ليكون ١٥٠ عضوًا فقط.

فلما أجريت انتخابات البرلمان السادس في ١٩٣٦ عادت مصر إلى ما يقرب من العدد الذي استقرت عليه من قبل، وأصبح العدد ٢٣٢ عضوًا.

لكن وزارة محمد محمود التى أجرت الانتخابات في ١٩٣٨ والتى هى أولى الانتخابات التى أقرت مبدأ التزوير زادت العدد تبعًا لزيادة عدد السكان، فأصبح العدد ٢٦٤، وهو العدد الذي التزمت به الانتخابات البرلمانية في عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٥ أيضًا، لكن العدد سرعان ما زاد زيادته الطبيعية إلى ٣١٩ في برلمان ١٩٥٠، أي أنه على مدي ما يقرب من ثلاثين عاما لم يزد العدد إلا بأقل من مائة عضو.

(٢)

أما في عهد ثورة ١٩٥٢ فقد بدأ البرلمان في ١٩٥٧ بـ ٣٥٠ عضوًا، ثم زاد العدد في برلمان ١٩٦٤ إلى ٣٦٠، وظل العدد هكذا في برلمانات ١٩٦٩ و ١٩٧١ و ١٩٧٦ و ١٩٧٩، حتى أصبح الظن أن هذا هو العدد «الرسمي» للبرلمان.

(٣)

وحين بدأت الدولة تأخذ بفكرة القوائم التي طبقتها لأول مرة في ١٩٨٤، فإنها رفعت عدد أعضاء البرلمان إلى ٤٥٨، ومن الطريف أن الدولة عادت فى هذا إلى فكرة تمثيل المائة ألف مواطن بنائب واحد وهوالعدد الذي ظل كذلك في ١٩٨٧.

لكن العودة إلى نظام الانتخابات الفردية عادت بعدد الاعضاء إلى ٤٥٤ (أي بنقص أربعة أعضاء) في برلمان ١٩٩٠ و ١٩٩٥ و ٢٠٠٠ و ٢٠٠٥ وهؤلاء يمثلون ٢٢٢ دائرة يمثلها ٤٤٤ عضوًا فضلا عن الأعضاء العشرة المعينين.

وفي انتخابات ٢٠١٠ زيد على هذه المقاعد ٦٤ مقعدًا لكوتة المرأة، ليصبح العدد الإجمالي ٥١٨.

وفي ظل تولي المجلس العسكري السلطة عدّل عن كوتة المرأة وارتفع عدد أعضاء البرلمان ليصبح ٥٠٨ منهم عشرة معينون أما الباقون ٤٩٨ فيمثلون أعضاء منتخبين (ثلثهم) ١٦٦ بالأسلوب الفردي، و(ثلثاهم) بالقوائم ٣٣٢.

الفصل الخامس عشر

نظامنا الانتخابي بعد الثورة

(١)

بعد أن صدر الحكم بعدم دستورية البرلمان أصبحت فى حل من أن أذكر أسبابًا أخرى أكثر أهمية لعدم دستورية قانون الانتخابات البرلمانية، وليس سرًّا أن الذين وضعوا هذا القانون كانوا أعضاء فى المحكمة الدستورية العليا نفسها.

من الحقائق البرلمانية أن معظم ديمقراطيات العالم قد استقرت على الأخذ بفكرة التمثيل النسبى للسكان فى البرلمانات، حتى إذا كان هذا التمثيل قابلًا للتغير مع تغير عدد سكان المحافظات أو الولايات من دورة إلى أخرى.

وعلى سبيل المثال فإن الأمريكيين قد استقروا على أن يكون عدد أعضاء مجلس النواب الأمريكى متناسبا مع عدد السكان، بحيث يختلف عدد ممثلى كل ولاية تبعا لعدد سكانها، وبحيث يقبل هذا العدد نفسه مبدأ التغيير من دورة لأخرى.

وقد شهدت المنظومة البرلمانية فى مصر عددًا شبيها من القواعد التى تم الأخذ بها عند تحديد عدد أعضاء البرلمان، وليست هذه المقالة مجالا للاستعراض التاريخى لتطور هذا العدد وقواعد تحديده، فقد قدمت أكثر من دراسة فى هذا المجال وقد لخصت فى الفصل السابق مباشرة التطور التاريخى للعدد.

بحسبنا في هذا المقام أن نقول: إن البرلمان الأول فى ١٩٢٤ كان يضم ٢٢٤ عضوا، على حين أن برلمانات العشرين سنة الأخيرة من عهد مبارك فى (١٩٩٠ و ١٩٩٥ و٢٠٠٠ و ٢٠٠٥ و٢٠١٠) أصبحت تضم ٤٥٤ عضوا، منهم عشرة بالتعيين، أما الباقون فيمثلون ٢٢٢ دائرة.

وهكذا يتضح لنا للغرابة، وللإنصاف أن المصريين المحدثين كانوا ميالين عقب ثورة ١٩١٩ إلى زيادة عدد الدوائر بما يتناسب مع عدد السكان فى ذلك الوقت، ثم جاءت فكرة الخمسين فى المائة من العمال والفلاحين لتضاعف حجم العضوية، حيث أصبح لكل دائرة ممثلان أحدهما على الأقل من العمال والفلاحين.

وهكذا زاد عدد الأعضاء دون أن يزيد عدد الدوائر، بل إنها نقصت إلى ١٧٥ فى الستينيات والسبعينيات، ثم عادت إلى الزيادة حتى وصل الأمر الآن إلى أن أصبح عدد الأعضاء ٥٠٨ في برلمان ٢٠١٢.

وقد بدأ الإحساس بتضخم عدد أعضاء المجلس يظهر إلى الوجود بصورة مكثفة حتى على المستوى «المادي» أو «البدنى» المتمثل فى ازدحام الأعضاء على «الدكة» (ولا نقول المقاعد) البرلمانية وذلك لأن المقاعد فى البرلمان لا تستقل بنفسها وإنما نتواصل من خلال «الكنبة».

وحين يثور الحديث عن غياب الأعضاء عن بعض جلسات المجلس، فإننا نكتشف أن بعض هذا الغياب مطلوب لأن قاعة المجلس نفسها لا تستوعب إلا ثمانين فى المائة من عدد الأعضاء مهما تم «حشر» الأعضاء.

(٢)

بعد هذه المقدمة المهمة أحب أن أشير إلى بعض الأسباب الواضحة فيما يتعلق باضطراب مبدإ التمثيل العادل فى برلمان ٢٠١٢ ، وسوف يلاحظ القارئ أننا سنقارن التمثيل النسبى فى البرلمان ٢٠١٢ بما كان عليه الوضع فى ٢٠٠٠ أو ٢٠٠٥ متجاوزين المقارنة ببرلمان ٢٠١٠ وذلك بسبب مهم، هو ما حدث من العدول الرسمى عن تعديل حدود وتقسيم المحافظات والدوائر الذى كان قد تم قبل تلك الانتخابات، ولا شك فى أن القارئ يعرف السبب فى هذا، وهو ما يعبر عنه الإحصائيون باختصار فى قولهم أن تكون المقارنة العلمية بين برتقال وبرتقال وليس بين برتقال وتفاح.

وعلى هذا فإذا قارنا الوضع الجديد للدوائر الانتخابية بعدد الدوائر البرلمانية فى انتخابات ٢٠٠٠ و ٢٠٠٥ (أى قبل التعديل المشبوه الذى أجراه أحمد عز بمعاونة المجلس

والنظام فى ٢٠١٠، وهو التعديل الذى استند ظاهريا إلى إنشاء محافظتى أكتوبر وحلوان اللتين تم إلغاؤهما فيما بعد)، فإننا نكتشف أن التمثيل النسبى للمحافظات المختلفة قد اختلف على الرغم من أن المجلس العسكرى التزم إلى حد كبير بما كان عليه الوضع من قبل.

لكن الأوضاع الاستثنائية التى فرضها الأمر الواقع تبعًا لما قرره المجلس العسكرى قد أنشأت أسبابا كثيرة للطعن فى دستورية البرلمان بسبب مخالفتها أبسط قواعد التمثيل النسبى، وفى هذا الصدد فإننا سنلتزم بالموضوعية التامة فى ذكر ما هو ملتزم وما جانب الالتزام فى التوزيع الذى فرضه هذا القانون.

(٣)

فعلى حين بقيت القاهرة والدقهلية فى الترتيبين الأول والثانى: و قد كان للدقهلية ٦٨٪ من المقاعد المخصصة للقاهرة (١٧ دائرة للدقهلية مقابل ٢٥ للقاهرة) والآن يصل الأعضاء الذين يمثلون الدقهلية إلى ٣٦ بينما يصل عدد الأعضاء الذين يمثلون القاهرة إلى ٥٤ عضوًا.

ومعنى هذا أن تمثيل الدقهلية انخفض انخفاضًا ضئيلًا إلى ٦ , ٦٦٪ من القاهرة، لكنها مع هذا ظلت فى المركز الثانى من حيث عدد المقاعد، وذلك على الرغم من أنها ليست المحافظة الثانية فى عدد السكان، ولكن هذه قصة سنتناولها بعد قليل.

ويأتى فى الترتيب التالى الآن ٥ محافظات هى: سوهاج، والشرقية، والجيزة، والبحيرة، والغربية.

وقد أصبح لكل محافظة من هذه المحافظات الخمس ٣٠ عضوًا فى البرلمان، ومن الطريف أن ثلاثًا من هذه المحافظات (وهى الشرقية والجيزة وسوهاج) كان يمثلها فى البرلمانات الأخيرة (وحتى ٢٠٠٥) «٢٨ عضوًا» على حين كانت كل من محافظتى البحيرة والغربية ممثلة بـ ٢٦ عضوًا فقط.

ومن الأكثر طرافة أن القانون المبدئى الذى كان المجلس العسكرى قد أعده، كان قد خصص لكل محافظة من هذه المحافظات الخمس ٢٨ عضوًا، فلما أعلن المجلس عن

التعديل الأخير الذى جعل الثلثين للقوائم مقابل الثلث للفردى، واكتشف أن رقم ٢٨ لا يقبل القسمة على ٣ حتى يكون هناك ثلثان وثلث فاضطر إلى تعديل العدد إلى ٣٠ عضوًا

وهكذا أصبح لكل محافظة من هذه المحافظات ما يقابل ٥٥٪ من مقاعد القاهرة على حين كان لكبرياتها الثلاث ٥٦٪، وكان للاثنتين الأخريين ٥٢٪ من مقاعد القاهرة فى ٢٠٠٠، وهكذا حظيت محافظتان بحظوة نسبية، على حين انخفض الحظ قليلا فى حالة ٣ محافظات أخرى، ومع هذا فإن الوضع الحالى لايزال غير متناسب مع عدد سكان كل محافظة من هذه المحافظات على نحو ما سنرى بعد قليل.

فى الترتيب التالى الآن تأتى أربع محافظات هى : الإسكندرية والمنوفية والمنيا وأسيوط، والتى يمثل كل منها فى النظام الحالى ٢٤ عضوًا، ومن الطريف أن ثلاثًا من هذه المحافظات كانت تتمتع بنفس الترتيب، وكان يمثلها فى النظام القديم ٢٢ عضوًا (وهى الإسكندرية والمنوفية والمنيا)

أما الرابعة (أسيوط) فهى أول محافظة حدث لها صعود كبير نسبيًّا فقد كان يمثلها ٢٠ عضوًا فأصبح نصيبها الجديد ٢٤ عضوًا فى ٢٠١٢. وهكذا ظل تمثيل الإسكندرية والمنوفية والمنيا فى حدود ٤٤٪ من حجم تمثيل القاهرة فى برلمان ٢٠٠٥ وفى برلمان ٢٠١٢ (٢٢ بالنسبة إلى ٢٥) (و٢٤ بالنسبة إلى ٥٤)، أما أسيوط فقد ارتفعت حصتها البرلمانية مقارنة بالقاهرة من ٤٠٪ إلى ٤٤٪.

(٤)

ونأتى إلى الترتيب التالى، وهو الذى تحتله محافظتا القليوبية وكفرالشيخ التى أصبح لكل منهما ثمانية عشر عضوًا، وقد كان نصيب هاتين المحافظتين فى الماضى تسع دوائر (أى ٣٦٪ من حصة القاهرة)

وقد انضمت لهاتين المحافظتين محافظة سرى عليها الاقتطاع أو التجزئة، وهى محافظة قنا التى كان لها ١١ دائرة (بنسبة ٤٤٪ من تمثيل القاهرة) لكن إنشاء محافظة الأقصر جاء على حسابها، ومن الطريف أن الجزء الذى بقى لقنا الجديدة من قنا القديمة يتمثل فى ٨

دوائر أى بنسة ٣٢٪ من القاهرة، وهكذا يمكن النظر إليها على أنها محظوظة إذا ما قورنت بحال كفرالشيخ والقليوبية.

لكن الجديد الذى حدث فى القانون الذى أجريت به الانتخابات الآن أنه ضم إلى هذه المحافظات الثلاث (أى القليوبية وكفرالشيخ وقنا) محافظتين أخريين، هما: الفيوم وبنى سويف، وكان نصيب كل منهما فى الماضى ٧ دوائر فقط (أى ٢٨٪ من نصيب القاهرة)، وهكذا قفزت الفيوم وبنى سويف لتتساوى مع كفر الشيخ ومع القليوبية ومع قنا (بعد تعديل حدودها)

وأصبح لكل محافظة من المحافظات الخمس عشرون عضوًا، ومعنى هذا أن نسبة هاتين المحافظتين المحظوظتين ارتفعت من ٢٨٪ إلى ٣٧٪ ، وكأن القانون الجديد الذى سنه المجلس العسكرى كان يبغى فى الأساس مجاملة هاتين المحافظتين بالذات، أو كأنه عدل كى يعطيهما حقًّا مكتسبًا جديدًا.

نأتى إلى محافظة دمياط التى كانت تحتل الترتيب التالى، وكان لها ١٦٪ من حجم تمثيل القاهرة (٤ دوائر مقارنة بخمس وعشرين دائرة)، وفى القانون الجديد الذى أجريت عليه الانتخابات الحالية أصبح لمحافظة دمياط ١٢ عضوًا فى البرلمان أى ما يوازى٢٢٪ من حجم تمثيل القاهرة، وهكذا انضمت دمياط إلى بنى سويف والفيوم فى المجاملة الظاهرة على يد قانون المجلس العسكرى.

أما المراكز الثلاث التى كونت محافظة الأقصر فقد كان لها ٣ دوائر انتخابية و٢٤ عضوًا، أى بنسبة ١٢٪ من تمثيل القاهرة، وقد أصبحت فى البرلمان الحالى ممثلة بنسبة ١١٪ أى أن تمثيلها انخفض بنسبة طفيفة.

(٥)

ثم نأتى إلى أربع محافظات كان لها فى مطلع القرن الواحد والعشرين ٣ دوائر وهى بورسعيد والإسماعيلية وأسوان وشمال سيناء أى بنسبة ١٢٪ من تمثيل القاهرة وقد أصبحت فى برلمان ٢٠١٢ ممثلة بنسبة ١١٪ من تمثيل القاهرة (أى أن تمثيلها انخفض بنسبة طفيفة).

ونأتى إلى أصغر خمس محافظات من حيث عدد السكان، وقد نالت جزءًا من الحظ فى القانون الجديد (وهى السويس ومرسى مطروح والبحر الأحمر والوادى الجديد وجنوب سيناء) فقد كان لكل منها فى برلمان مطلع القرن الواحد والعشرين دائرتان، أى أربعة أعضاء، أى بنسبة ٨٪ من تمثيل القاهرة.

ومن الطريف أنها أصبحت الآن ممثلة بستة أعضاء، أي بنسبة ١١٪ من تمثيل القاهرة، أى أن تمثيلها ارتفع بنسبة ٥ , ٣٧٪ وهى نسبة كبيرة، لكن قانون الثلث والثلثين لم يكن يسمح بأقل من هذا من المقاعد لأى محافظة !! إذ إنه ببساطة شديدة يقوم على رقم ٦ ومضاعفاته (أى ٦ و١٢ و١٨ و ٢٤ و ٣٠ و ٣٦ ثم ٥٤).

وهكذا يمكن لى الآن أن ألخص بعض المشكلات الدافعة إلى الحكم بعدم الدستورية بناء على مخالفة العدالة وتكافؤ الفرص فى توزيع مقاعد البرلمان فى النظام الحالى، وتتلخص هذه الأسباب الجوهرية فيما نحصره و نرتبه بطريقة أكثر تفصيلا في الفصل التالي :

الفصل السادس عشر

أسباب مستقبلية للحكم بعدم دستورية قانون الانتخابات البرلمانية

(١)

أولا: افتقاد النسبة والتناسب بين عدد سكان المحافظات وعدد ممثليها فى البرلمان، ويمكن التدليل على هذا من خلال مجموعة من الأمثلة البارزة التى تعكس خللا نشأ عن محاباة بعض المحافظات فى القانون الجديد من ناحية أو الاضطرار غير المبرر إلى استمرار التمييز الظالم الذى بدأ منذ سنوات واستمر حتى الآن من ناحية أخرى، هذا فضلًا على ما هو معروف من تفصيل بعض الدوائر تفصيلًا خاصًا لأسباب خاصة.

١/١

وربما أن أبرز نموذج صارخ للظلم وعدم الدستورية ما يتمثل فى محافظة أسوان التى تتفوق على محافظة دمياط فى عدد السكان، ومع هذا فإن محافظة دمياط تمثل فى البرلمان بضعف العدد الذى تمثل به محافظة أسوان (١٢ عضوًا لدمياط مقابل ستة أعضاء فقط لأسوان)، وذلك على الرغم من تفوق أسوان فى عدد السكان.

١/٢

ولعل أبرز نموذج آخر للظلم وانعدام تكافؤ الفرص والمساواة الذى كرسه قانون الانتخابات الحالى فيما يتعلق بتوزيع الدوائر هو الظلم الذى تتعرض له محافظة الجيزة، فعلى الرغم من أنها المحافظة الثانية فى عدد السكان بعد القاهرة مباشرة وقبل الدقهلية فإن

القانون الحالى الذى أجريت الانتخابات على أساسه يخصص لها ٣٠ عضوًا فقط، على حين يخصص للدقهلية ٣٦ عضوًا مع أن الأولى أن يفوق عدد الأعضاء الممثلين للجيزة عدد الأعضاء الممثلين للدقهلية.

٣/١

ثالث نموذج للظلم وانعدام تكافؤ الفرص والمساواة الذى كرسه قانون الانتخابات يتمثل فيما خصصه القانون للإسكندرية (٢٤ عضوًا فقط) مع أنها تفوق محافظة سوهاج فى عدد السكان، وعلى حين يمثل سوهاج ٣٠ عضوًا فإن الإسكندرية التى تفوقها فى عدد السكان تتوقف عند ٢٤ عضوًا فقط من خلال أربع دوائر للفردى ودائرتين فقط للقوائم.

٤/١

رابع نموذج للظلم وانعدام تكافؤ الفرص والمساواة الذى كرسه قانون الانتخابات يتمثل فى محافظة المنيا التى يشبه وضعها وضع محافظة الإسكندرية حيث تتفوق المنيا على سوهاج فى عدد السكان بينما تسبقها سوهاج فى عدد الأعضاء (٣٠ لسوهاج مقابل ٢٤ للمنيا).

٥/١

خامس نموذج للظلم وانعدام تكافؤ الفرص والمساواة يتمثل فى محافظة القليوبية التى تتفوق على محافظة أسيوط فى عدد السكان ومع هذا فإنها لا تحصل من حصة الأعضاء البرلمانيين إلا على ١٨ مقعدًا مقابل ٢٤ مقعدًا لمحافظة أسيوط.

(٢)

ثانيا: إهمال تمثيل الأقاليم أو المناطق الجغرافية الطرفية:

من ناحية أخرى فإن هناك مجموعة من الأقاليم الطرفية التى كان ينبغى أن تتميز بدوائر خاصة بها على مستوى الدوائر الفردية (مهما كان عدد سكانها قليلا) لما تمثله هذه المناطق من أهمية سياسية وتنموية خاصة، وذلك أسوة بما هو حادث مع محافظة جنوب سيناء، وقد أشرت إلى هذا المعنى فى مناسبات عديدة، ولعل أبرز الأمثلة على هذه الأقاليم هو:

١/٢

إقليم النوبة: التى لاتزال تابعة فى دوائر القوائم لأسوان التى تمثل محافظتها كلها دائرة واحدة، وذلك على الرغم من أن حكومات الوفد كانت قد خصصت دائرة خاصة للنوبة فى الحقبة الليبرالية.

٢/٢

الواحات البحرية: التى لاتزال تابعة لمحافظة الجيزة على الرغم مما حدث فى تعديلات التقسيم الإدارى فى ٢٠٠٨ وما أعقبه من اعتراضات وإعادة نظر.. لكن القضية الأهم هى أن تكون الواحات ممثلة بدائرة انتخابية مستقلة، وألا تبقى مع دائرة شارع الأهرام!! التى كان طريق الواحات يبدأ من نهايته ويستمر مئات الكيلو مترات !!

٣/٢

حلايب وشلاتين: التى لا نهتم بها إلا كرد فعل على بعض تصريحات غير مسئولة تصدر فى بعض الأحيان عن بعض الساسة السودانيين من آن لآخر.

٤/٢

سيوة: التى تمثل أهمية سياحية وإثنوجرافية خاصة، ويصعب النظر عليها على أنها منطقة تابعة إداريا لمحافظة تبعد عاصمتها (مطروح) عنها مسافة طويلة حتى بالطائرة.

٥/٢

وسط سيناء: على الرغم من أن محافظتى شمال وجنوب سيناء تمثل الآن محافظتين من محافظات الدائرة الواحدة، فإن الفارق السكانى بينهما يصل إلى ٦ أضعاف لصالح شمال سيناء، وربما يقودنا هذا إلى العودة إلى ما طالبت به من أن تكون هناك ٦ محافظات مستقلة فى سيناء إذا أردنا البدء فى سياسات تنموية بعيدة المدى لهذا الإقليم الحبيب إلينا..

ومع هذا فإنه فى المدى القصير ينبغى أن تكون هناك دائرة انتخابية لوسط سيناء، حتى لو ظل وسط سيناء تابعًا للشمال.

(٣)

ثالثا: التوزيع الارتجالى أو العشوائى لمناطق الدوائر فى المحافظات المختلفة

كان الدافع وراء هذا التوزيع هو محاولة تقسيم دوائر متوازية أو متساوية نسبيًّا فى عدد السكان بصرف النظر عن الاتصال الجغرافى والتاريخى بينها، ويبرز هذا فى محافظة القاهرة بصفة خاصة، حيث امتدت مناطق القاهرة الجديدة والتجمع الخامس والتجمعات العمرانية فى شرق القاهرة لتكون مكملة لدائرتى مصر الجديدة ومدينة نصر دون تمييز واضح تبعا للجغرافيا مثلا.

١/٣

وعلى سبيل المثال فإن دائرة مدينة نصر ضمت أقسام القاهرة الجديدة على حين ضمت دائرة مصر الجديدة أقسام شرطة مدينتى الشروق وبدر التى هى أبعد من الأقسام التى ضمت إلى مدينة نصر، وعلى سبيل تقريب الصورة فإن السيارة التي تتحرك في طريق السويس من القاهرة إلى شرقها تسير فى نطاق دائرة مصر الجديدة ثم فى نطاق دائرة مدينة نصر ثم فى نطاق دائرة مصر الجديدة وهكذا انقطع التواصل الجغرافى لدائرة مصر الجديدة.

لكن المسألة كانت فيما يبدو وكما ذكرنا مجرد محاولة لاستكمال التوازن العددى فى عدد السكان.

٢/٣

كما ظهر هذا العيب الواضح فى ضم منطقة شربين إلى دكرنس فى دائرة واحدة فى الدقهلية مع وجود الانفصال التاريخى والجغرافى بين المنطقتين حيث كانت شربين حتى ١٩٥٥ تابعة للغربية، وعلى النقيض فقد ضمت بعض المناطق الأخرى المجاورة لشربين والواقعة غرب النيل مثل بلقاس وطلخا والتى كانت تابعة للغربية إلى دائرة المنصورة وهكذا.

وحدث شىء شبيه بهذا لأول مرة فى الدائرة الثانية فى دمياط، وضمت مناطق فارسكور والزرقا إلى كفر سعد الواقعة إلى الغرب من نهر النيل فى دائرة واحدة لم يحدث بينها أى اتصال انتخابي فيما قبل.. وهكذا.

(٤)

رابعًا: عدم التكافؤ فى تقسيم المحافظة الواحدة إلى دوائر انتخابية:

وهو ما أثبتته التجربة الانتخابية نفسها، حيث ظهر بكل وضوح مبدأ يهدد المساواة والعدالة وتكافؤ الفرص من خلال تفاوت توزيع الدوائر الانتخابية المختلفة داخل المحافظة الواحدة، وهو ما عكس تحيزا واضحًا يكفى للحكم بعدم الدستورية بناء على هذا التحيز الذى يعرف عند الساسة والعامة باسم «تفصيل الدوائر» لأغراض معينة وعلى سبيل المثال لا الحصر فإننا نضرب أمثلة صارخة لهذا التحيز أو الظلم الواضح.

١/٤

قسمت محافظة قنا إلى دائرتين وكان من الواضح أن هذا التقسيم تم بالتفصيل الدقيق، ذلك أن الدائرة الأولى ضمت أربعة مقاعد على حين ضمت الدائرة الثانية ثمانية مقاعد..

ومن باب توقع أن الأمور تسير حسب المنطق فلربما يبدو أن هذا التقسيم تم حسب التوزيع الجغرافى أو الترابط المكانى، ويمكن التغاضى عنه، لكن نتائج الانتخابات وفرز الأصوات سرعان ما أثبتت أن هذا التقسيم تم لغرض فى نفس يعقوب،

ذلك أن المتوسط الانتخابى اللازم للفوز بأحد المقاعد تباين تباينا رهيبا فيما بين الدائرة الأولى والثانية، إذ كان فى الدائرة الأولى ٨٨ ألف صوت، على حين كان فى الدائرة الثانية ٤٢ ألف صوت، ومعنى هذا بوضوح أن الدائرة الأولى تتطلب من المرشح أن يفوز بمقعدين من أجل أن يفوز بمقعد واحد . ذلك أن عدد الأصوات الصحيحة فى الدائرة الكبيرة كان أقل من عدد الأصوات الصحيحة فى الدائرة الصغيرة (٣٣٧ ألف صوت فى الدائرة الكبيرة بينما هو ٣٥٢ ألف صوت فى الدائرة الصغيرة)

فهل رأى أحد موقفًا يحمل المفارقة أكثر من هذا ؟

وهل رأى تعمدًا وسبق إصرار وترصد أكثر من هذا ؟

أليس من حق مواطنى الدائرة الأولى أن يكون لهم عدد مقاعد مواز لعدد مقاعد الدائرة الثانية، إن لم يكن أكثر؟

٢/٤

أثبت نظام توزيع المقاعد (بالتقريب الحسابى) فشله فى كل الدوائر بلا استثناء، ففى كل الدوائر لم يتحقق أن يفوز بالمقاعد إلا عدد قليل من الفائزين ثم يعاد توزيع المقاعد على الأحزاب صاحبة أكبر نسبة تالية، ومن ثم فقد كان من المفارقات أن يحصل حزب ما على مقعد، بينما الحزب الذى حصل على عشرة أضعاف ما حصل عليه الأول لا يحصل إلا على ثلاثة مقاعد فقط، وهكذا اختلت النسبة والتناسب إلى حد صارخ.

ولن أفيض فى ذكر الأمثلة الدالة على هذه التوزيعات الصارخة فى غرابتها لكنى لابد أن أضرب بعض الأمثلة، **ففى الدائرة الأولى فى إحدى المحافظات** :

- حصل حزب المواطن المصرى على ٤٢ ألف صوت وأصبح من حقه الحصول على مقعد،
- بينما حزب النور الذى حصل على أكثر من ١٢ ضعفًا لحزب المواطن المصرى لم يحصل إلا على ٥ مقاعد فقط
- وبينما حزب الحرية والعدالة الذى حصل على عشرة أضعاف حزب المواطن المصرى لم يحصل إلا على أربعة مقاعد فقط
- وبينما الوفد الذى حصل على قرابة ثلاثة أضعاف حزب المواطن المصرى لم يحصل إلا على مقعد واحد.. كأن الأمثال الثلاثة والمثل الواحد سواء.

٣/٤

وفى دائرة بنى سويف حصل حزب ما (وأنا أتعمد ألا أذكر الأسماء حتى لا يحس أحد بالحرج) على مقعد بتسعة عشر ألف صوت، بينما الحزب الذى حصل على ٢٢٣ ألف صوت أى أكثر من عشرة أضعاف الحزب الصغير توقف نصيبه عند ثلاثة مقاعد فقط.

٤/٤

وفى الإسماعيلية حصل أحد الأحزاب على مقعد واحد فى مقابل ٣٥ ألف صوت، بينما الحزب الذى حصل على أكثر من خمسة أضعاف هذا الرقم وحصل على ١٨٣ ألف صوت لم يحصل إلا على مقعدين.

٥/٤

وفى السويس وهنا لا بد أن أذكرها بالاسم لأنها مبعث الثورة حصل أحد الأحزاب على مقعد بثلاثة وعشرين ألف صوت، بينما الحزب الذى حصل على خمسة أضعاف هذا العدد من الأصوات حصل على مقعدين مقابل ١٢٧ ألف صوت، وبينما الحزب الذى حصل على ثلاثة أضعاف حصل على مقعد واحد بخمسة وسبعين ألف صوت.. ولا أدرى كيف يقتنع أحد بهذه القسمة الصعبة.

٦/٤

وتتمثل الحالة الصارخة فى دائرة الشرقية الأولى حيث حصل أحد الأحزاب على مقعد بخمسة وعشرين ألف صوت، بينما الحزب الذى حصل على سبعة عشر ضعفًا له لم يحصل إلا على أربعة مقاعد فقط مقابل ٤٣٢ ألف صوت، والحزب الذى حصل على ما يقرب من خمسة أضعافه حصل على مقعد واحد فقط مقابل ١٢٠ ألف صوت.

(٥)

خامسًا: عدم فاعلية نظام المتوسط فى إفراز الناجحين:

من العجيب أن كثيرًا من الدوائر أثبتت للوهلة الأولى فشل نظام توزيع المقاعد بطريقة المتوسط إذ إن هذه الدوائر لم تمكن أحدا (إلا النادر) من الحصول على المتوسط الانتخابى.

١/٥

وعلى سبيل المثال فإنه فى دائرة قنا الأولى لم يتخط المتوسط الانتخابى إلا حزب واحد فقط، وهكذا وزعت المقاعد الثلاثة الباقية (أى ثلاثة أرباع المقاعد) بجبر الكسور جبرًا منافيًا لقواعد الحساب والجبر.فقد حصل على المقعد الثانى حزب حصل على ٨٧٪ من المتوسط الانتخابى، وقد يكون هذا مقبولا نسبيا، لكن المقعد الثالث حصل عليه الحزب الذى حصل على ٣٩٪ من المتوسط، أما المقعد الرابع فقد حصل عليه من حصل على ٣٧٪ من المتوسط.. وهكذا.

٢/٥

فإذا نظرنا إلى هذه الأرقام نفسها فى ضوء عدد الأصوات الصحيحة وجدنا أن:

الحزب الأول حصل على ٣٢٪ من الأصوات الصحيحة وحصل على مقعد.

وأن الثانى حصل على ٢١٪ وحصل على مقعد.

وأن الحزب الثالث حصل على ٩٪ وحصل على مقعد.

وأن الحزب الرابع حصل على ٨٪ وحصل على مقعد.

فأى قسمة هذه؟ وأى نظام هذا الذى يمكن الحاصل على ٨ ٪ من عدد الأصوات أن يكون له مقعد واحد، مساويا فى هذا لمن حصل على أربعة أمثاله ٣٢ ٪؟!

الفصل السابع عشر

قانون الانتخابات البرلمانية
نموذج واضح للإخلال بالوحدة الوطنية

من مظاهر اختلال الوحدة الوطنية أن يكون هناك تشريع يحصل فيه مواطنوا إقليم على مزايا أكبر من مزايا مواطنيهم من إقليم آخر، وهو ما حدث فى قانو الانتخابات البرلمانية (٢٠١٢) لن أفيض فى ذكر مقدمات كثيرة ولكنى سألجأ مباشرة إلى إثبات الحقائق ذلك أن عنوان الفصل واضح، والمغزى منه أكثر وضوحا، وما نحتاجه هو أن نثبت دعوانا بالأرقام وها هى الأرقام من خلال.

مقارنة بين أعداد أصوات المقيدين في كشوف انتخابات الرئاسة وكشوف انتخابات البرلمان

وقد رتبت محافظات الجمهورية تنازليا التي كانت مقيدة في كشوف البرلمان، ومع ذكر عدد المقاعد المخصصة لكل محافظة في البرلمان:

المحافظة	في الانتخابات الأولى	في الانتخابات الثانية	المقاعد
القاهرة	٦,٦٤٦,٥٦٣	٦ ملايين و٤٧٩ ألفا و٨٨٧ ناخبا	٥٤
الدقهلية	٣,٦٩٢,٥٨٥	٣ ملايين و٦٧٥ ألفا و٦٩١ ناخبا	٣٦
الشرقية	٣,٤٨٣,٣٢٩	٣ ملايين و٤٩٩ ألفا و٤٩٢ ناخبا	٣٠
الإسكندرية	٣,٣٠٣,٩١٦	٣ ملايين و٢٩١ ألفا و٧٤٣ ناخبا	٢٤

البحيرة	٣,١٩٨,٦٢٥	٣ ملايين و٢٢٧ ألفا و٥٥٥ ناخبا	٣٠
الغربية	٢,٩١٩,٣٣٢	مليونان و٩١٤ ألفا و٤١٨ ناخبا	٣٠
المنيا	٢,٦٤٥,٩٧٥	مليونان و٦٦٨ ألفا و٦٥٥ ناخبا	٢٤
القليوبية	٢,٥٨٤,٣٨٦	مليونان و٦٠٦ آلاف و٥٨ ناخبا	١٨
سوهاج	٢,٣٢٣,١٩٧	مليونان و٣٤٧ ألفا و٩٥٨ ناخبا	٣٠
المنوفية	٢,٢١٥,٥٤٤	مليونان و٢٢١ ألفا و٤٤١ ناخبا	٢٤
أسيوط	٢,٠٧١,٨٧٩	مليونان و٨٧ ألفا و٣٠٨ ناخبين	٢٤
كفر الشيخ	١,٨٦٣,٨٣٤	مليونان و٨٦٣ ألفا و٢٤٠ ناخبا	١٨
قنا	١,٥٩٢,٨٣٧	مليون و٦٠٤ آلاف و٧١٣ ناخبا	١٨
الفيوم	١,٥٤٥,٥٥٦	مليون و٥٥٤ ألفا و٧٨٨ ناخبا	١٨
بني سويف	١,٤١٥,٢٢٥	مليون و٤٢٧ ألفا و٥٤٥ ناخبا	١٨
أسوان	٨٥٢,٥٧١	٨٥٩ ألفا و٢٧٨ ناخبا	٦
دمياط	٨٤٩,٢٣٥	٨٥٢ ألفا و٢٤٩ ناخبا	١٢
الإسماعيلية	٦٩٦٣٥١	٧٠٠ ألفا و٥١٥ ناخبا	٦
الأقصر	٦٦٦,٢٥٤	٦٧٣ ألفا و٩٨٦ ناخبا	٦
بورسعيد	٤٣٧,١٣٤	٤٣٦ ألفا و٧٠٣ ناخبن	٦
السويس	٣٧٨,٩١٧	٣٨١ ألفا و٧٨٣ ناخبا	٦
البحر الأحمر	٢٢١,٠١	٢٢٥ ألفا و٢١٨ ناخبا	٦
شمال سيناء	٢٠٣,٣٥٩	٢٠٧ آلاف و٩٠٦ ناخبين	٦
مرسي مطروح	١٩٩,٦٥٦	٢٠٤ آلاف و٧٣٣ ناخبا	٦
الوادي الجديد	١٤٠,٥٧٣	١٤١ ألفا و٩٥٩ ناخبا	٦
جنوب سيناء	٦٠,٥٩٧	٦٢ ألفا و٦٥٩ ناخبا	٦

الباب الخامس

خبرات زعامية

الفصل الثامن عشر

كيف يتعامل الزعماء مع أسلافهم؟

(١)

تتكشف كثير من أخلاق الزعماء في تعاملهم الصادق أو الحكيم مع أسلافهم، ومن المهم أن نشير إلي حقيقة أن الخلق الداعي إلي تكريس الاحترام للأسلاف في حد ذاته ليس دليلا علي العظمة، لكن تكريس الاحترام للقيمة هو الأهم، وعلي الجانب الآخر فإن محاولة الانتقاص من الزعماء السابقين (بأشخاصهم أو قيمتهم) لا تعكس رغبة في المضي إلي الأمام، بقدر ما تعكس ضعفا في الثقة بالنفس.. وهذا هو لب القضية.

كان الرئيس محمد نجيب محبا للزعيم النحاس، ومقدرا لدوره، ولم يحدث أن تعامل معه بالمنطق الذي تعامل به الرئيس عبد الناصر مع كل الزعماء السياسيين الذين سبقوه إلي الزعامة، وقد حرص الرئيس نجيب في مذكراته علي أن يشير إلي موقفه النبيل من زعماء ما قبل الثورة، وبخاصة النحاس باشا الذي طلب عبدالناصر تحديد إقامته ضمن المعتقلين، لكن الرئيس نجيب بحكمته ـ حسب روايته ـ لم يوافق علي مثل هذا الاقتراح، ومن العجيب أن نري في رواية الرئيس نجيب ما يشير إلي موافقة أعضاء مجلس قيادة الثورة له في موقفهم من النحاس، كما أن من العجيب أن نري محاولة من جبهة عبد الناصر لوضع مجلس قيادة الثورة ورئيسه أمام الأمر الواقع من خلال نشر الكشف في الصحافة متضمنا اسم النحاس.

(٢)

لكن التاريخ علي كل حال يذكر للرئيس نجيب حرصه علي عدم المشاركة في مثل هذا الظلم إلي درجة أنه اعتكف في بيته حتي غير الآخرون موقفهم من النحاس باشا:

«قدم جمال عبدالناصر لمجلس الثورة، بصفته وزيراً للداخلية، كشفاً بأسماء بعض الزعماء السياسيين، الذين رأي أنهم خطر علي النظام، ورأي أن من الضروري اعتقالهم. وكان من بينهم مصطفي النحاس، الذي طلب تحديد إقامته.. ورفضت.. ووافقني المجلس علي رفضي.. وشطب اسمه من الكشف.. ووقعت الكشف.. لكني فوجئت بأنهم أعادوه للكشف بعد توقيعي.. واعتبرت ذلك تزويراً لا يمكن السكوت عليه.. وطلبت شطب النحاس من جديد.. فقال جمال عبدالناصر:

«إن شطب اسم النحاس بعد أن نشر الكشف في الصحف يزيد الموقف بلبلة».

«وتعجبت من تصرف عبدالناصر».

«وتعجبت من موقفه من النحاس، الذي سبق أن قال لي عنه:

«إنه رجل طيب واللي يتعرض له ما يشوفش خير».

«ومرة أخري اعتكفت في بيتي».

«كان ذلك في ١٢ أكتوبر، وصدرت نشرة طبية تقول:

«أنني اعتكفت في بيتي »بسبب انحراف مفاجئ» ألم بصحتي في الصباح، لم يمكنني من »الذهاب إلي القصر الجمهوري بعابدين»، وتأجلت جميع مقابلاتي الرسمية، وكان منها مقابلة سفير العراق، ووزير استراليا المفوض».

(٣)

بلور الرئيس محمد نجيب كل هذا بعد روايته في قوله :

«إلي هذا الحد كنت أرفض قرارات المجلس، سواء (الصادرة) منه مباشرة، أو التي يصدرها من خلال محكمة الثورة».

الفصل التاسع عشر

الفارق بين زعامتين: عبد الناصر والبغدادي

(١)

كان البغدادي يمتاز عن كل زملائه من رجال الثورة جميعا بالقدرة الفذة علي الإنجاز، وقد كان بمثابة الوحيد منهم الذي جمع ما نسميه في الأدب والفكر بالقدرة علي الحلم وعلي وضع الخطط الكفيلة بتنفيذ حلمه ثم علي متابعة هذا التنفيذ. و كان الفارق بينه وبين زملائه جميعا في هذه القدرة كبير جداً فعلي الرغم من قدرة السادات الخيالية واللا محدودة علي الحلم، وعلي الرغم من قدرة عبد الناصر الرائعة علي استثارة الحماس وتوجيهه، وعلي الرغم من إخلاص كمال الدين حسين وتفانيه في تنفيذ كل مابدأه وعلي الرغم من تفاني زكريا محيي الدين لما يعمل وادائه المتواصل في صمت، فإن البغدادي كان يفوق هؤلاء الأربعة في القدرة علي الحلم وتحقيق الحلم في كيان متميز ومتكامل بتكلفة أقل وفي وقت أسرع وبجودة أرفع.

ولم يكن هناك من اقترب من البغدادي في هذه القدرة الا جمال سالم الذي هو لمن لا يعرف صاحب الفضل الاول في الاصلاح الزراعي والسد العالي ومشاريع الثورة المبكر .

(٢)

ولا يخفي علنيا أن عبد اللطيف البغدادي كان يحتل مرتبة سامقة بين زملائه الضباط في وجدان الجماهير، فقد كان اسمه مرتبطاً بالإنجاز الحقيقي والسريع، ومنذ أيام عبداللطيف البغدادي لم يتكرر صنو له من بين الضباط كي ينفذ ما استطاعه البغدادي بهمة واقتدار وفي لمح البصر.

ولاشك أن إنجازاته ذاتها قد تعرضت للتضخيم الفولكلوري حتي وصلت إلي حدود لم يكن هو ليتصورها، ولكن الجمهور معذور في ذلك، فإن هذا الجمهور لم يشهد في حياته قبل البغدادي ولا بعده مَنْ قام بما قام به البغدادي في فترات وجيزة، وقد سمعت بأذنى من بعض الناس أن البغدادي كان يمر علي الطريق الترابي في الصباح فيأمر بأن يرصف الطريق في ذات اليوم ويعود ليمر عليه في المساء وهو مرصوف..

ومع استحالة وقوع مثل هذا فإن هذه الأقوال تعطينا فكرة عن مدي الإنجاز وسرعته وإن لم تكن حقيقية تماماً..

(٣)

وربما لايعرف القراء ان البغدادي كان هو صاحب أطول فترة في موقع الرجل الثاني في عهد الرئيس عبد الناصر (علي عكس ما هو شائع)، ومنذ اللحظات الأولي التي أخذت فيها الثورة بمبدأ الأقدمية كانت الأمور تسير في صالح قيام البغدادي بدور بارز (وكان ترتيبه في كشف الجيش يعطيه دوراً متقدماً جداً إذ كان الثاني مباشرة بعد جمال سالم) ، ولكن لاجمال عبد الناصر ولا البغدادي استطاعا أن يقودا التفاعل بين رأييهما لمصلحتيهما أو لمصلحة مصر.

ومنذ ١٩٥٦ أصبح من المفهوم والمعروف والمتفق عليه أن البغدادي هو الرجل الثاني في الدولة بعد عبد الناصر، وذلك بعد خروج جمال سالم من السلطة بعد أن خرج شقيقه صلاح سالم، وقد ظل البغدادي يحتفظ بهذا الوضع عمليا ثم شكليا حتي استقالته النهائية في مارس ١٩٦٤، وقد تولي رئاسة الجمهورية بالنيابة عدة مرات في أثناء غياب الرئيس جمال عبد الناصر في الخارج.

(٤)

ومعظم المراقبين لتلك الأيام يقررون أن عبد اللطيف البغدادي قد أضير بسبب فكره المنظم وآرائه الواضحة وإنجازه السريع وحرم من موقعه المتقدم بسبب معارضته لعبد الناصر ، ولكني علي خلافهم جميعا أزعم أن خسارة الرئيس جمال عبد الناصر بابتعاد عبد

اللطيف البغدادي كانت أكبر بكثير من خسارة البغدادي بالابتعاد ،فلربما خسر البغدادي المناصب وبعض الأضواء ولكن عبد الناصر خسر صديقا حقيقياً ،ووطنيا مخلصاً ، ورأيا سديداً ، ومشاركة واعية ، ولو كان للموتي أن يتكلموا لقال الرئيس عبد الناصر ـ الآن ـ مثل ما أقول .

لعلي أريد أن أقول إن البغدادي كان منضبط الفكر إلي حد بعيد، ولعلي أريد أن أقول أيضا إنه كان منضبط السلوك أيضا إلي حد بعيد، وقد كان هذا الالتزام أو الانضباط مكلفاً كما نعرف، فهو عبء علي الأعصاب وعلي البدن، كما أنه ليس بإمكان الكثيرين أن يكونوا كذلك.

الفصل العشرون

أمن الدولة لا يزال فوق الجميع
(في صيف ٢٠١١)

(١)

يعتقد بعض الناس ومعهم حق أن أمن الدولة لا يزال يسيطر على كثير من القرارات والعلاقات، وأن أمن الدولة يختار للمناصب من يراه قادرا متعاونا مع أمن الدولة ومطيعا لأمن الدولة وساعيا لأمن الدولة، وإنه إذا كان أمن الدولة قد فقد اللافتة فإنه لم يفقد المقر الكبير وإذا كان قد فقد بعض المقرات الصغيرة هنا أو هناك فإن ذلك لم يكن إلا مقدمة لتعويضه بما هو أفضل.

ويعتقد بعض الناس أن صراعا حول أحد المناصب الوزارية قد دار بين الشئون المعنوية وأمن الدولة لكن أمن الدولة انتصر في النهاية وفرض مرشحه مستغلا الإشارة إلى أن الشئون المعنوية كانت تريد المنصب لنفسها وأن هذا غير مناسب في ظل الحديث عن الدولة المدنية..وما أدراك ما الدولة المدنية، وأنها فزاعة مزدوجة: مرة في وجه الاتجاهات الدينية ومرة أخرى في وجه أي قرار صائب تراه المؤسسة العسكرية وتختلف أمن الدولة في صوابه!!

بل إن أحد أقطاب أمن الدولة يجادل محدثيه بما كشفت عنه المواقع الإلكترونية الستار من أسماء المتعاونين مع الجهاز التي ضمت من رشح للوزارة أخيرا.

(٢)

أكثر من هذا وذاك فإن أحد محبي أمن الدولة يصرح بأدب شديد وبحياء شديد وبحنان شديد بأن اختيار رئيس الوزراء نفسه كان إنجازا من إنجازات أمن الدولة تم على ثلاث مراحل: مرحلة الدفع به لينال من الثوار مثل أصحابنا المشاهير الذين يرشحون أنفسهم للرئاسة، ومرحلة إعطاء المصداقية من خلال الرسائل التي نقلها لهم، ومنهم، ثم مرحلة التتويج التي انتهت بابتلاع الطعم مع ظهور رئيس الوزراء لآخر مرة في مجمع التحرير وقد ظهر بين الإخوان المسلمين على المنصة وكأنها رسالة للاتجاهات القديمة كي يبدأ نزاعا جديدا يصطاد أمن الدولة فيه ويصول ويجول.

ولما ظنّ رئيس الوزراء هذا أن من حقه أن يمارس سلطاته فوجئ بالمنع فلما طلب أن يمارس صلاحياته فوجئ بالمنع أيضا، فلما فوجئ أنه لا يملك السلطات ولا الصلاحيات ولا القدرة على أداء الواجب ظن أن من حقه أن يطلب حقه في أن يستقيل ففوجئ بالمنع.. وهنا قال لصديقه الذي ينتمي لأمن الدولة هل كنت طعما فحسب؟ فرد عليه صديقه بقوله: لقد كنت من البداية تعرف أنك طعم!! وكنت تسعى إلى لذة الوجود على قمة السنارة..وها أنت على قمتها..فلا تطلب أكثر من ذلك

(٣)

قال الرجل: لم أكن أسعى إلى القمة بالتحديد بل كنت أسعى إلى رد الاعتبار فحسب، قال أمين أمن الدولة : نحن الذين نرد الاعتبار على نحو ما نريد..

ألم يكفك الرد ويقنعك أم أنك تريد فقد الاعتبار مرة أخرى.

قال الرئيس: أفكر..قال أمين الدولة: ليس عندنا وقت

قال الرئيس: أنتظر..قال أمين الدولة: ليس عندنا صبر

قال الرئيس: أنفذ..قال أمين الدولة: ليس عندنا مانع .

الباب السادس

كتابات منشورة في زمن الثورة

الفصل الحادي والعشرون

ماهر أبو العينين والقضاء الإداري

(١)

تفضل الصديق الكريم الدكتور ماهر أبو العينين نائب رئيس مجلس الدولة، فأهدانى الجزء الثالث من كتابه الموسوعى «تطور قضاء الإلغاء»، وهو مرجع قيم كتبه صاحبه بأسلوب أصدق ما يقال فى وصفه «إنه أسلوب مقروء يمكن المثقف من أن يستزيد من المعارف القانونية والتاريخية على نحو منظم، لا يخلو من الإمتاع، ولا يخلو من الإقناع أيضًا»، وقد بدأ كتابه بمقدمة جميلة زاد فيها على ما ذكره الأستاذان الكبيران عبد الحميد بدوي، وعبد الرزاق السنهورى من تاريخ القضاء الإدارى فى مصر، وكان باعثه فيما كتبه فى هذا المجال إيمانه القوى بأن وطنه يستحق هذه المكرمة من مكارم القضاء، وهى مكرمة القضاء الإدارى القادر على حفظ حقوق الأفراد والشعب فى مواجهة سلطة الدولة.

(٢)

ويميل الدكتور أبو العينين إلى الأخذ برأى الفقيه الأعظم الدكتور عبد الحميد بدوى فى القول بأن مجموع الشعب المصرى لم يكن يتصور أن يكون هناك قضاء يقف بجوار الشعب فى مواجهة السلطة المستبدة بطبعها.

وفى الحق أن هذا الرأى يجد كثيرًا من الشواهد التى تؤيده، لكنى كنت، ولا أزال، أرى عكس هذا الرأى، ذلك أنى أستطيع أن أجد شواهد كثيرة تدل على أن الشعب كان واثقا من قدرته على أن يلغى قرار الحكومة بطرق كثيرة ومتعددة.

وقد كانت الثورة على الحاكم هى إحدى هذه الطرق التى مارسها الشعب المصرى فيما نعرفه من أواخر حكم دولة المماليك، ثم في الدولة العثمانية، حيث كان الشعب يصف صفوفه من أجل تعديل ما تقضى به السلطة من قوانين تتضمن تعديلا فى طرق فرض الضرائب وتحصيلها.

بل إن مظاهرات طلاب الأزهر -وهو يومئذ الوعاء التعليمى الوحيد- تدل على أن قضاء الإلغاء قد عرف طريقه إلى مصر قبل أن تأخذ مصر بالنظام الفرنسى فى القضاء، وقبل أن تحاول تطوير هذا النظام حتى خرج مجلس الدولة مولودا صحيحًا كامل النمو فى ١٩٤٦.

(٣)

والحق أن كتاب الدكتور ماهر أبو العينين بموضوعيته قد أكد لى وجود أدلة أخرى على صحة حدسى، وصواب رأيى فيما يتعلق بهذه الجزئية، بما أثبته المؤلف من نصوص واضحة تدل دلالة قاطعة على ممارسة المصريين لهذا الحق، ولهذا النمط من القانون والقضاء والتنفيذ.

على أن هذا الجزء من كتاب الدكتور ماهر أبو العينين أو موسوعته يتميز بمميزات بديعة يندر أن تجد مثلها فيما يوازيه من كتب، ويكفى على سبيل المثال أن أذكر أنه خصص جزءا من الكتاب كمُلْحَقٍ خاص بمجلس الدولة والشأن المسيحى، وهو شأن أثبت مجلس الدولة فيه انحيازه إلى الدولة المدنية فى وقتٍ كان الساسة جميعًا لا يفهمون دلالة المصطلح قضائيًّا ولا تنفيذيًّا، ثم جاء عصر لاحق أصبح فيه هذا المصطلح (للعجب الشديد) دالا دلالة غير دقيقة على معانٍ غير دقيقة فى مواجهة ظنون واتهامات غير دقيقة.

(٤)

ويتميز كتاب الدكتور ماهر بالإضافة إلى هذا بفصل يتضمن بحثا متعمقا للمادة ٧٤ من الدستور، كما يناقش قضايا محورية من قبيل جواز تعطيل القرار الإدارى للحكم القضائى، وهو يخصص فصلا كاملا للحديث عن أحكام مجلس الدولة المتعلقة بحماية الحقوق والحريات العامة وحقوق الإنسان فى ظل الأحكام العرفية، وحالة الطوارئ، ويناقش فى هذا الفصل أحكام المجلس فيما يتعلق بقرارات الاعتقال على سبيل المثال.

ولست أحب أن أمضى فى الحديث عن فصول هذا الكتاب بطريقة التعداد والتبويب، فذلك شأن آخر، لكنى أحب أن أنتهز إشادتى بكتاب صديقى، لتكرار إشادتى بمجلس الدولة، ودوره فى حماية الحريات العامة منذ نشأ فى ١٩٤٦ وحتى اليوم.

ومن الجدير بالذكر أنى لا أتحدث عن مجلس الدولة فى أى حديث إلا مع وصفه المحبب إلى نفسى، وهو أنه «حامى الحريات».

وربما كان هذا هو السبب الذى دفع ثورة يوليو ١٩٥٢ إلى محاولة العصف بهذا المجلس بعد أقل من عامين من قيامها، فى واقعة مشهورة فى كل أنحاء العالم، وهى واقعة الاعتداء على السنهورى باشا والمجلس باليد (والحذاء) والمظاهرات والإعلام.

الفصل الثاني والعشرون

ليبرالي مسلم يكتب تجربته بامتياز

(١)

أستطيع أن أقول، وأنا فى غاية الاطمئنان: إن قراءة تاريخ مصر المعاصرة لا تكتمل إلا بقراءة كتاب المهندس أيمن عبد الستار «مذكرات مسلم ليبرالى»، ذلك أن هذا الكتاب القيم يحتوى كثيرًا من التفصيلات والرؤى التى تشرح كثيرًا من التحولات الحادة فى هذا التاريخ، كما تشرح أيضا كثيرًا من التحولات التى تبدو اليوم هادئة، بينما لم تكن كذلك حين صاغتها الظروف والأحداث.

وعلى صعيد ثانٍ فإن هذا الكتاب القيم يقدم آراء مستقلة بذل صاحبها حياته كلها حتى استطاع أن يقدمها على هذا النحو المستقل، وهى آراء موضوعية وقيمة وذكية، فضلا على أصالتها ومصداقيتها.

وعلى صعيد ثالث فإن هذا الكتاب حافل بالحديث الصادق عن تجارب جيلين من أبناء مصر.. جيل مؤلفه، وهو الجيل الذى ولد فى حدود ١٩٦٠، وجيل الأبناء الذى ولد فى حدود ١٩٨٥ وما بعدها، وقد شهد كل من هذين الجيلين أصعب الفترات التى يمكن لجيل أن يمر بها، ومع هذا فإن الجيل الأحدث استطاع أن يفرض نفسه على تاريخ وطنه فرضًا لم يتح لأى جيل آخر فى التاريخ المصرى كله.

ونحن نعرف أن هذا الفرض قد تحقق وتأكد بثورة ٢٥ يناير، لكنا لا نستطيع أن نفهم مقدمات ٢٥ يناير على نحو عميق إلا إذا درسنا علاقة هذا الجيل بجيل آبائه، أي جيل أيمن

عبد الستار، وأقرانه الذين دفعوا ثمنا غاليا من حياتهم، ومن حريتهم، ومن صحتهم، ومن نفسياتهم، حتى استطاعوا أن يمهدوا لجيل أبنائهم الفرصة لهذا التأثير العميق الذى غيّر وجه التاريخ المصرى كله.

(٢)

والحق أنه لم يكن يدور بخلدى أن أجد فى هذا الكتاب كل هذه القيمة، وكل هذه القيم

كنت أولًا أمنى نفسى بكتاب يطرح رؤية خاصة، فإذا بى أمام كتاب يطرح رؤية متفردة.

وكنت ثانيا أمنى نفسى بكتاب يلخص تجربة ذاتية، فإذا بى أمام كتاب يلخص تجربة جيل بأكمله، وهو يقدم لى من آن لآخر سيرًا ذاتيةً متميزة لأكثر من عشرين من أفضل أبناء ذلك الجيل.

وكنت ثالثا أمنى نفسى بكتاب يتحدث عن الزقازيق بصفة خاصة، وعن مصر على أكثر تقدير، فإذا بى أمام كتاب يتحدث عن العالم أمس، واليوم، وغدًا.

(٣)

وقد رأيت فى هذا الكتاب أحكامًا صائبة من حيث لم يحل الألم بين المؤلف وبين صياغتها، ورأيت فيه قصًّا هادفًا من حيث لم يحل الحياء بينه وبين ممارسة القص، ورأيت فى الكتاب قدرة على النفاذ إلى الأعماق، وقدرة أخرى على الحديث عن الأعماق.

لا أستطيع أن أنكر أننى أعرف عن بعض الجزئيات التى تحدث عنها المهندس أيمن عبد الستار أكثر مما صرح به، لكنى أستطيع أن أعترف له دون تواضع أنه اختار الجرعة المناسبة، كى يبنى ما قدمه من بناء فنى جميل.

(٤)

ولا أستطيع أن أنكر أن المهندس أيمن عبد الستار كان متواضعا فى كثير من المواضع من كتابه بما يتعارض مع الحقيقة نفسها، لكنى أستطيع أن أقول إنه لم ينجح فى هذا التواضع الفنى، إلا لأنه رزق التواضع النفسى من قبله.

ليس هذا الكتاب مجرد مذكرات، كما كتب عنه صاحبه فى عنوان الكتاب، لكنه حياة كاملة.

وليس هذا الكتاب مذكرات مسلم ليبرالى كما وصف صاحبه نفسه، لكنه حياة ليبرالى مسلم كما صممت أن أقول فى عنوان مقالى.

وليس هذا الكتاب أثرا من آثار التاريخ الشخصى فحسب، لكنه أثر من آثار التفكير الإنسانى كله، ولولا أن هذا المهندس آثر العلم والعلم وحده فى كتابته لتجربته، لكان له من الدراما أداة كفيلة بأن ترتفع بعمله هذا إلى مصاف التجارب الإنسانية الخالدة فى الأدب العالمى.

الفصل الثالث والعشرون

الفريق الشاذلي العسكري الأبيض

هذا هو العنوان الذي اختاره الصديق الأستاذ مصطفي عبيد عنوانه لكتابه الجديد الذي صدر في الذكرى الأولى لوفاة رئيس الأركان المصري الأشهر.

كان الفريق سعد الشاذلي واحدًا من الشخصيات العسكرية المصرية المرموقة التي لم يتح دوام الحظ لها أن تنال ما تستحقة من تكريم رسمي، وذلك بسبب ظروف السياسة وتقلباتها، وبسبب ردود فعل الشاذلي لهذه الظروف، وليس من شك في أن الشاذلي كان مسئولًا عما افتقده من تكريم، أو عن بعض ما افتقده من التكريم، وقد أفضت في شرح هذه القصة منذ ١٣ عامًا، ورويتها وحققتها بالتفصيل في كتابي «النصر الوحيد» الذي كان من حظي فيه أن أعرض مذكراته وأناقشها بالتفصيل، وليس هذا المقال مجالًا لتكرار الحديث عما تحدثت عنه من تقديري للشاذلي، ولمكانته التي لم يصل إليها عسكريون كثير، ولمدي ما تمتع به من حب السادات، ولا عن تقدير الرجلين لبعضهما البعض قبل أن يحدث بينهما الجفاء المشهور.

وقد ظل الفريق الشاذلي طيلة عهد الرئيس مبارك يعاني من كل ما يؤذي مشاعر المواطن الحر الأبي، فهو تارة في المهجر أو المنفى، وتارة في السجن، وتارة ثالثة في البعد الذي لاهو نفي ولا هو سجن ولا هو تحديد للإقامة ... ولكنه بُعْدٌ إجباريٌّ عن الضوء يجمعُ كل ذلك.

وقد شاءت الأقدار أن يتوفي الشاذلي في آخر أيام حسني مبارك، وأن تشيع جنازتهُ في اليوم الذي شهد تنحي مبارك، ولو أن جنازة الشاذلي، أو وفاته قد تقدمت شهرًا واحدًا

(أو أسبوعين) لكان مبارك على رأس المشيعين على نحو ما فعل مع جنازات زملائهما من قادة حرب أكتوبر، لكن القدر كان يخطط لشئ مختلف تمامًا كأنما أراده ليبلور أكثر القصص درامية فيما يتعلق بحرب أكتوبر ١٩٧٣، وليحرم مبارك من غسيل يديه من أزمة الشاذلي.

وقد نجح الكاتب الصحفي الصديق الأستاذ مصطفى عبيد في أن يقدم للقارئ كتابا جميلًا عن هذا الرجل العظيم، وقد سعدت بقراءة كتابه الجميل وما احتواه من كثير الاتفاق أو الاختلاف مع آرائي التي أبديتها من قبل في عدد من كتبي التي تناولت هذه الفترة، كما قدرت في الأستاذ مصطفى عبيد روحه المنصفة وتهذيبه الدائب وتعبيره الجميل، ولما كنت حريصًا لأسباب كثيرة على التعبير عن إشادتي بهذا الكتاب الجميل فقد رأيت أن أنتقي للقارئ منه بعض ما يدلنا على مهارة مؤلفه ومكانة الشاذلي معًا دون أن أتدخل بذكر آرائي في القضايا التي تناولها المؤلف بذكاء واقتدار، فقد تكفل المؤلف الصديق بذكر آرائي والتعليق عليها، وعلي سبيل المثال فإني أنقل للقارئ هذه الفقرات من كتاب الأستاذ مصطفي عبيد عن اختيار الشاذلي رئيسا للأركان، وهو القرار المحوري الذي مكن الرجل من أن يلعب كل أدواره التالية بما فيها أهمها على الإطلاق، وهو دوره العظيم في النصر الوحيد.

يقول الأستاذ مصطفي عبيد « لقد كانت سهام النقد توجه كثيرًا إلى الشاذلي لاختياره رئيسًا للأركان متخطيًا بذلك الاختيار نحو ٤٠ شخصًا في الأقدمية طبقًا لمذكرات كثير من العسكريين لكن مناقشة موضوعية لذلك الاختيار، تكشف أن الظروف لعبت دورًا غريبا في ذلك التعيين إلى جانب الكفاءة والخبرة المشهود له بهما.

«لو كان اختيار سعد الشاذلي رئيسا للاركان قد حدث في عهد عبد الناصر لكان من الممكن الادعاء بأن ذلك حدث بوساطة من صهر الشاذلي الذي كان يعمل وقتها في رئاسة الجمهورية، أو لاعتبارات الصداقة والعلاقة القديمة التي ربطت عبد الناصر به، وإن كان عبد الناصر نفسه لايضع حدًا لتلك العلاقات في قراراته السيادية، وقد ظهر ذلك جليًّا في خلافاته مع كثير من أصدقائه من الكتاب والصحفيين حتي زملائه داخل مجلس قيادة الثورة فيما بعد».

«إن سعد الشاذلي يحكي الظروف المصاحبة لقصة اختياره رئيسًا للأركان فيذكر في مذكراته أن كلمة حق قالها في مؤتمر عام ربما كانت سببًا في اختياره ».

وينقل الأستاذ مصطفي عبيد عن الشاذلي قوله:

« في يوم ١٨ أبريل ١٩٧١ اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة تحت رئاسة الفريق فوزي. لم تكن وظيفتي التي أشغلها قائدا لـ منطقة البحر الأحمر العسكرية تؤهلني لعضوية هذا المجلس، ولكني دعيت لحضور المؤتمر ».

« وقد كان الموضوع الرئيس للمؤتمر هو بحث موضوع اتحاد الجمهوريات العربية »

.....

« طلب الفريق فوزي آراءنا في الانضمام إلى اتحاد الجمهوريات العربية، وهاجم جميع المتحدثين ذلك (أي انضموا للفريق فوزي) وعندما جاء دوري أيدت الاتحاد، وفندت الأسباب المختلفة التي اعتمد عليها الآخرون في معارضتهم له، وخلصت إلى أنه إذا لم يكن هناك أي نفع لـ مصر من هذا الاتحاد، فإنه ليس هناك أي غرم ».

وينقل الأستاذ مصطفي عبيد إلى رأي محمد حسنين هيكل فيقول :

وينقل لنا هيكل تقرير رأي عام سريا يتضمن رأي القوات المسلحة المصرية في اتفاق اتحاد الجمهوريات العربية بين مصر وسوريا وليبيا يظهر فيه بوضوح تدني لغة الخطاب الموجه من الفريق محمد فوزي وزير الحربية إلى رئيس الجمهورية عندما يقرر آراء سياسية من صميم عمل الساسة، ولا دخل للعسكريين بها مثل «اكتافنا هتتعب من كتر الشيل» و«لاثقة في البعث السوري» و«ازاي يتم اتحاد بين دول متشككة في بعض».

ثم يقول مصطفي عبيد :

«في اليوم التالي لثورة ١٥ مايو الساداتية أو انقلاب مايو كما يحب الناصريون أن يسموه تم استدعاء «سعد الشاذلي» لاستلام منصبه الجديد رئيسًا لأركان حرب القوات المسلحة ليتخطي بتعبيز « الشاذلي » نفسه ٣٠ ضابطًا يسبقونه في الأقدمية».

ثم ينقل عبيد عن الشاذلي قوله :

«وقد يعتقد البعض أن هذا التعيين جاء بناء على موقفي في مؤتمر المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ١٨ أبريل، ولو أخذنا بهذا التفسير لكان منطقيًّا أن يقوم «السادات »

بالتخلص من جميع الاعضاء الذين وقفوا ضده، لكي يأمن شرهم، ولكن هذا لم يحدث، وفي يوم ١٧ مايو قابلت رئيس الجمهورية في منزلة بالجيزة برفقة الفريق صادق، حيث أشاد بما يعرفه عني من قدرات، وإمكانيات، وانضباط عسكري، وانه يثق بي ثقة كبيرة ».

ثم يتعرض الأستاذ عبيد لرأي صاحب هذه السطور فيقول :

«أما الدكتور محمد الجوادي فله رأي خاص في قصة تعيين الشاذلي رئيسًا للأركان، حيث يري أن وضع الفريق الشاذلي في القوات المسلحة كان وضعا استثنائيًّا خاصًا صنعه الرئيس أنور السادات بعبقريته الخاصة فيقول :

«إن الفريق سعد الشاذلي تخرج في الكلية الحربية دفعة يوليو ١٩٤٠، وهكذا كان تاليًا في كشف الاقدمية لمجموعة كبيرة من القادة الذين اصبح رئيسًا عليهم بفضل قرار السادات باختياره رئيسًا للأركان عقب حركته التصحيحة في مايو ١٩٧١، وقد خرج بعض هؤلاء من الخدمة في الفترة ما بين مايو ١٩٧١ واندلاع الحرب في أكتوبر ١٩٧٣، ولكن بعضهم بقي أيضًا في الخدمة، حتي اشترك في الحرب في ظل رئاسة الشاذلي للأركان، وربما كان المشير الجمسي نفسه أبرز هؤلاء، فالرجل تخرج في دفعة ١٩٣٩، ووصل إلى مناصب رئيسة متقدمة جدًا في القوات المسلحة منذ ١٩٦١ إذ عين قائدا للمدرعات، كما عين رئيسا لهيئة العمليات في القوات البرية ١٩٦٦، ورئيسًا للعمليات في مركز القيادة العامة في حرب ١٩٦٧، ثم رئيسًا لأركان الجبهة عقب هزيمة ١٩٦٧ وغيرها من المناصب».

«لكن المفاجاة الكبري حدثت عند اجراء السادات حركته التصحيحية في مايو ١٩٧١ إذ قفز اللواء الشاذلي خريج دفعة يوليو ١٩٤٠، ليكون رئيسًا للأركان، وليسبق بهذا عددًا كبيرًا من القادة الذين يتولون مواقع قيادية في القوات المسلحة لم يمر بها سعد الشاذلي نفسه، ومع أن التقليد العسكري يتطلب في مثل هذه الحالة خروج كل من هم أقدم من سعد الشاذلي إلا أن هذا لم يحدث، ولا حتى بطريقة جزئية».

«ويبدو أنه كان هناك أكثر من سبب لهذا، فقد كان المناخ العام مناخ انكسار لا يسمح بالتفكير في مثل هذه الترتيبات، كما كانت الظروف المحيطة في ذلك الوقت تشهد توترًا لا مثيل له، وقد خرج معظم أقطاب السلطة الفعلية في الوطن في أسبوع واحد من مناصبهم

إلى المعتقل بمن فيهم وزير الحربية نفسه، ومدير المخابرات العامة، ووزير الداخلية، وعدد كبير من القادة العسكريين الذين أيدوا جميعا وزير الحربية فيما يتعلق بالوحدة مع سوريا، بينما أيد قائد واحد هو سعد الشاذلي الرئيس السادات، وهذا ما يعتقده الفريق محمد فوزي».

«ويبدو لي أن الشاذلي لم يتجاوز زملاءه الباقين في خدمة الجيش فقط، لكنه تخطي أيضا عددًا من اللواءات في الأفرع الأخرى للقوات المسلحة كانوا قد سبقوه إلى رتبه اللواء ».

ويعلق الأستاذ مصطفي عبيد على رأيي فيقول :

« ويخلص الرجل إلى رأي غريب قد ينفرد به ألا وهو أن سعد الشاذلي هو رجل أنور السادات في القوات المسلحة على نحو شبيه بـ عبد الحكيم عامر بالنسبة لعبد الناصر مع الفارق وهو ما آثار حالة من القلق بين القادة العسكريين، ويبدو أن السادات استشعر ذلك وهو ما جعله لا يواصل تصعيد الشاذلي إلى موقع الفريق صادق بعد خلافه معه، واضطر إلى أن يعود خطوة إلى الوراء ويختار أحمد إسماعيل ».

***

على هذا النحو الجميل الذي يوازن بين الروايات المختلفة، وينسج منها كتابا متعدد الزوايا والرؤي نجح الكاتب الأستاذ مصطفي عبيد في تقديم كتاب جميل عن قائد عسكري متميز لعب أدوارًا عظيمة في خدمة مصر والوطن العربي، وقدر له أن يختلف مع السادات، وأن يندفع في هذا الخلاف إلى حدود ترك جواز سفره المصري واستعمال جواز سفر عربي بديلًا عنه، رحم الله سعد الشاذلي وجزي مصطفي عبيد عن وطننا خير الجزاء.

الفصل الرابع والعشرون

نهضة الكتابة التاريخية
كتاب د. أحمد زكريا الشلق

(١)

يعرض الدكتور أحمد زكريا الشلق في هذا الكتاب آرائه الناضجة في عدد من المؤرخين العظماء الذين قدر له أن يطلع على كتاباتهم، وأن يفيد من آثارهم، وقد آثر الدكتور الشلق أن يتناول هؤلاء تناولًا شبه أكاديمي يخلو من التعبير عن مشاعره الحقيقية تجاههم، حين قدر له أن ينقل عنهم، أو أن يدرس على أيديهم، أو أن ينهل من علمهم، وقد كان في وسع الدكتور زكريا أن يبدأ كل فصل من هذه الفصول برواية واقعة اشتباكه للمرة الأولي مع نصوص هذا المؤرخ أو ذاك، أو مع محاضرة هذا الأستاذ أو ذاك، أو أن يتحدث عن أول مرة رأي فيها محمد شفيق غربال، أو أحمد عزت عبد الكريم، أو محمد صبري السربوني، أو أحمد عبد الرحيم مصطفي ممن قدر له أن يعاصرهم، بل أن يصحب بعضهم.

لكن الدكتور الشلق استطاع بذكاء ظاهر أن يلم بآثار هؤلاء المؤرخين، وأن يتحدث عنهم حديثًا شائقًا جميلًا، دون أن يتفضل عليهم بلفظ المؤرخين، مكتفيًا بوصف آثارهم بأنها تمثل أنماطا من الكتابة التاريخية، مع أن هذه الأنماط حققت نهضة الكتابة التاريخية، على حد تعبير الدكتور أحمد زكريا الشلق نفسه، ومع هذا فإن الشلق يبخل على هؤلاء بلقب «المؤرخين»، وكأن ورثتهم سيستفيدون من هذا اللفظ معاشا استثنائيا. يحرص الدكتور الشلق على ترشيد منحه حتي لايقل نصيبه منه، وكأنما ستتوزع معاشات على المؤرخين، ويحرم منها رواد الكتابة التاريخية.

(٢)

والواقع أننا نتساءل بمشروعية عقلية مطلقة عما كان مطلوبا من هؤلاء الرواد الأوائل لتتحول كتاباتهم من وصف «الكتابة التاريخية» إلى وصف «المؤرخ»، وأغلب الظن عندي أن تعبير «الكتابة التاريخية» الذي اختاره الدكتور الشلق بذكاء بصيرته يمثل في الحقيقة معنى أرفع بكثير من المعني الضيق الذي درج الدكتور وزملاء مدرسته على استخدامه لوصف إنتاج جيلهم من البحوث التاريخية التي ما كان لها أن تقوم، ولا أن تستوي من دون الأعمال الضخمة التي أنجزها أحمد شفيق، أو أمين سامي، أو السربوني أو حتى يوسف نحاس، ومحمد فريد.

ويبدو الدكتور الشلق في كتابه القيم أسيرًا لبعض الأفكار التي فرضتها أدبيات العصر السابق على عصرنا، فهو لا ينظر إلى أحمد شفيق على سبيل المثال إلا من خلال منظار العقاد، وهو منظار متميز لأستاذ متميز، لكنني أجد أن في إنتاج شفيق ما كان حريا بأن يلفت نظر أحمد زكريا الشلق أكثر من قدرته على إثارة اهتمام العقاد، كذلك تبدو آراء الدكتور الشلق في شفيق غربال متأثرة بآراء محبي غربال من أساتذة التاريخ الذين زاملوه، وتتلمذوا عليه، ولو أن الدكتور الشلق عبر الطريق إلى الناحية الأخري لوجد الأيديولوجيين الذين يكرهون الملكية لأنها ملكية، وقد كونوا آراء مناقضة في شفيق غربال، لا لشيء إلا لأنه كان قريبا من القصر الملكي.

(٣)

وقد نجح الدكتور الشلق في أن يصور أثر الثقافة التعليمية فيما تركه المؤرخون من كتب وبحوث، وذلك بفضل عنايته الشديدة برصد التكوين الإنساني والفكري لهؤلاء الذين كتب عنهم، ومحاولة التتبع الأمينة لروافد فكرهم قبل أن يدخلوا إلى حلبة التاريخ، ويرتادوا مناطقه الجميلة بكتابات موثقة، أو محللة، أو مؤرخة أو ناقدة.

وقد كان الدكتور الشلق من الشجاعة، بحيث حرص على أن يضم إلى هذا الكتاب فصلًا عن الزعيم الوطني الكبير محمد فريد، مناقشًا فيه آثار الرجل التاريخية المبكرة، وقد كان حريا بالدكتور الشلق أن يجعل فصله هذا فصلًا من كتاب آخر عن أصحاب

الزعامات السياسية الذين تركوا آثارًا تاريخية (أو آثارًا في الكتابة التاريخية على حد تعبيره!!)، وبخاصة أن محمد حافظ رمضان خليفة محمد فريد في زعامة الحزب الوطني، كان له هذا الأثر، وكذلك كان الدكتور محمد حسين هيكل قطب الأحرار الدستوريين الذين كان من حظهم أن يؤرخ لهم أحمد زكريا الشلق.. وهكذا، ولا أظن الدكتور الشلق يترك هذه الفرصة في القريب العاجل، أو غير العاجل، فقد أتيح له هنا وهناك قدر كبير من القدرة على النشر الواسع المفيد لوطنه.

(٤)

ومن الإنصاف أن نشير إلى تقدير الشلق لما وقع في يديه من آثار كتبت عمن كتب عليهم، وفي هذا المجال نشير إلى تقديره لنصوص العقاد وسيد قطب عن أحمد شفيق، ولاعتماده الكبير على ما سجله الطماوي من مسيرة السربوني، أو على ما سجله فريد رفاعي عن سيرة أحمد شفيق، أو على ما سجله عرفة عبده باختصار من سيرة يوسف نحاس.

ومع هذا فإني أكاد أغبط الدكتور الشلق على أنه لم يطالع بعض ما نشر عن كثير من هؤلاء الأعلام، فقد كان بعض ما نشر كفيلا بأن يستثير قلمه للتعقيب، وهو ما كان حريًّا أن يضيع منه كثيرًا من وقته الضيق الذي خصصه لكتابة هذه الفصول الممتعة.

الفصل الخامس والعشرون

رحلة النسور الذهبية
من النكسة إلى النصر

هذا الكتاب الذي نشرته «دار كتابات» يستحق أن تطبع صفحاته بماء الذهب، وأن تطبع على ورق البنكنوت، لأنه يعرض أعظم ما تعتز به أمة من الأمم، وهو قصة جهادها لاستعادة روحها وكرامتها وعزتها وأرضها، وتحويل الخطأ إلى صواب، والهزيمة إلى نصر، والانسحاق إلى انتصار.

صدر كتاب «من النكسة إلى النصر» عن «دار كتابات»، وهي دار نشر ناهضة ومعنية بما يدل دلالة قاطعة على انتصار روح الأمة عبر تاريخها المجيد، وقد تولي تأليف هذا الكتاب الجميل ثلاثة من المؤلفين المخلصين الذين تعاونوا بصدق وأمانة وكفاءة، وكانوا في تعاونهم نموذجًا حيًا لتعاون الجنود المجهولين في إبراز المعني الجميل الذي يميز المصريين في أوقات المحن، وهو العطاء بلا من، والفداء بلا انتظار للجزاء، ومن حق هؤلاء المؤلفين الثلاثة، وهم: الأستاذ أحمد زايد، والدكتور عبد الله عمران، والأستاذ أحمد عادل، أن نشيد بدورهم في استخلاص هذه الذكريات الجميلة، وصياغتها على هذا النحو الدقيق والأمين.

أما الكواكب الأحد عشر الذين عرض الكتاب مذكراتهم الصادقة والجميلة فهم:

- اللواء طيار ممدوح طلبية،
- واللواء طيار السيد عبد المنعم الشناوي،
- واللواء طيار محمد عبد المنعم زكي،

- واللواء طيار ممدوح حشمت،
- والعميد طيار سمير عزيز ميخائيل،
- واللواء طيار مدحت زكي،
- واللواء طيار رضا العراقي،
- واللواء طيار ضياء الحفناوي،
- والمقدم صلاح دانش،
- واللواء طيار أركان حرب مجد الدين رفعت،
- واللواء طيار أركان حرب نصر موسي،

وهم أعلام في الوطنية والفداء، فضلًا عن عظمتهم المهنية والعسكرية، وسوف أحاول في دراسات تالية أن أتناول كل بطولة من بطولاتهم بما تستحق من تقدير.

ولست أستطيع أن أملّ من الإشارة إلى جهد هؤلاء المؤلفين باشتراكهم مع هذا الناشر الوطني العظيم الأستاذ طارق جلال عبد الحميد في تسجيل هذه التجارب الشخصية لهؤلاء المقاتلين الأبطال الذين مارسوا الحرب والتدريب والاستطلاع والمناورة طيلة هذه الفترة، ومن الإنصاف أن نشير إلى جمال تسمية هؤلاء المؤرخين لمجموعتهم بالمجموعة «٧٣ مؤرخين»، وإلي عظمة تسجيلهم للقصص الجميل الذي سجل معاني البطولة والفداء على نحو نادر.

علي أني لا أستطيع أن أترك هذا المقال من دون أن أدعو القوات المسلحة المصرية إلى تبني جهود هذه المجموعة «٧٣ مؤرخين»، وأن تشجع جهود «دار كتابات» للنشر بما ينبغي أن تشجع به من التداول الحي.

أما الناشر والمؤلفون الذين أحييهم من كل قلبي، فإني أدعوهم إلى تذكر حقيقة واحدة، وواحدة فقط، وهي أن نصر ١٩٧٣ كان له قائد، وأن هذا القائد الفريد كان اسمه محمد أنور السادات، وأن الأوان قد آن للحديث عن هذا النصر، مع عدم إغفال اسم أبيه الشرعي الحقيقي، أي دون القفز على هذه الحقيقة خطوة للوراء، ولا خطوة للأمام،

ورأيي أن القيمة الحقيقية لمصر لن تكتمل بدون هذا الوفاء الصائب بعيدا عن الانحياز إلى قيادة سابقة على السادات، أو لاحقة لأنور السادات، ذلك أن الانحياز إلى هذا أو ذاك يقلل تلقائيا من قيمة المصداقية في الرواية التي يرويها أصحابها عن مقدمات نصر حقيقي ووحيد يحاولون عبثا أن يجدوا له أبا شرعيا غير الأب الشرعي الحقيقي.

الفصل السادس والعشرون

مذكرات مهاجر مصري في لندن
كتاب حسين قدري

(١)

تتنازع هذا الكتاب ثلاثة انتماءات إلى ثلاثة ميادين متقاربة من أدبنا العربي الحديث، فهو أولًا فيما يبدو حتي من اسمه، كتاب مذكرات شخصية، وقد صاغه صاحبه بالفعل على هذا النحو، حيث جعل فصوله تتوالي حسب الأيام، وجعل عناوينه الجانبية معتمدة تماما على التاريخ، بحيث يبدو وكأنه يوميات متتالية، وقد بدا ولايزال يبدو كذلك بالفعل.

وهو ثانيا حديث عن حياة صاحبه في رحلة طويلة قد تبدو وكأنها هجرة، لكنها في واقع الأمر الذي نراه هجرة مؤقتة، قد يطول بصاحبها الوقت الذي يقضيه في المهجر، لكنه محتفظ في وطنه بسكنه الدائم، وبحنينه الدائم، وبعوداته المتكررة طيلة الأيام (!! ولا نقول السنوات) التي يقضيها بعيدًا عن وطنه.

وهو ثالثًا عمل سردي يضفر رواية تجارب الآخرين مع رواية صاحبه، ويصنع من هذا الذي يضفره صورة إنسان يتعرض للتجربة مرة بعد أخري، ويعزف ألحانها، ويغني قصتها على آلات مختلفة، لكن التجربة تظل واحدة الطابع والملمس حتي مع اتساع نسيجها، وتشعب طرقها، واختلاف نتائج سعيها يومًا بعد يوم.

(٢)

نحن نقرأ لحسين قدري تجربة إنسانية عميقة ومشتعلة يغذيها كاتبها بكل ما استقطره من تجارب الآخرين، ونجاحاتهم، وفشلهم، ويرويها بحب وثقة وتفاؤل ويطعمها من آن لآخر بكل ما رزق من موهبة القص، ومهارة الكتابة، وقدرة التعبير، وبكل ما أدركه من حقائق الحياة اللندنية، ودقائق النظم الحاكمة لهذه الحياة.

ومع كل هذا فإن المذكرات التي بين أيدينا ليست في واقع الأمر إلا كتابًا ينحو إلى التقدم، وينحو إلى الفضيلة معا، حتي وإن تجلت صورة صاحبه في كثير من فقراته أو حكاياته بعيدة عن هذا وعن ذاك.

إنه في واقع الأمر حديث نفس مشرئبة إلى الأمل، ساعية إليه، وهي نفس مؤثرة تحب الغير كما تحب الذات، وتتمني لأهلها وقومها أن يصبحوا في حال أفضل مما هم عليه، وتتمني لأهلها وقومها أيضا أن يتخلصوا سريعا مما يحول بينهم وبين هذا التقدم.

(٣)

علي أن حسين قدري حريص في كل كتابه على أن يلعب على عنصري الحقيقة والخيال فيما يرويه من حديثه عن تجارب شخصيات كتابه، وبالأخص عما يرويه عن نفسه الذي هو المهاجر نفسه، والذي هو الراوي نفسه، وليس غريبا أن نراه يقول: «إن الأسماء التي سوف ترد في هذا الكتاب كلها أسماء مستعارة فيما عدا ٩٩٪ منها فقط حقيقية!!».

وهكذا يتيح حسين قدري لقارئه أن يستمتع به راويا حتي وهو يصرف النظر عن أن يكون هو البطل ذاته، وهو يجيد استخدام هذه الجدلية بين البطل والراوي حتي يبدو في نهاية كتابه وكأنه تمكن من أن يتقمص شخصية لم تكن له، بعدما بدا في بدايته وهو يتحدث عن شخصيته بكل الصدق الممكن (أو المسموح به) لكاتب الاعترافات في الآداب العالمية التي يتطلع إليها القراء.

(٤)

لكننا نفاجأ مع كل هذا بأن حسين قدري قد تمكن من أن يقدم لنا ما يشبه المرجع عن شركات الحراسة في لندن، وتاريخها المعاصر، وعن طبيعة عملها، وعن آفاق هذا العمل، وكأنما كتب كتابه خصيصًا لهذا الموضوع الذي يستحق بالطبع أن يفرد له كتاب، وكأنما هو يعرض للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي للندن ولبريطانيا في الحقبة التي كتب كتابه فيها من خلال الحديث عن هذه الشركات، ولا يخلو الأمر بالطبع من أن يصور التاريخ الاجتماعي لمصر والمصريين من وجهة نظر متفتحة مقارنة لما يجده في مصر والمصريين بما يجده في بريطانيا والبريطانيين.

ومع أن حديث حسين قدري حافل بالأحاديث المتكررة عن الحب غير العذري، فإنه يغلف هذا الحديث بكل ما هو ممكن من أسلوب كاتبي عصره الذين سبقوا عصرنا الذي عرف بحديث الحب الصريح، بعدما عاش أسلافهم عصر التلميح، وهو يعتذر مقدما ومؤخرا عن كل ما وضعه من بهارات .

(٥)

ومع أننا لا نستطيع أن نعارض حسين قدري في قدر الحرية التي كان يعطيها لنفسه في هذا الكتاب إذا ما تعلق الأمر بموقفه من البشر وتجاربهم، ومن الشعوب وسلوكها، فإنني لا أستطيع أبدا أن أهضم ظلمه الشديد للهنود، ولا تحامله الدائم عليهم، حتي وإن قدم مبررات قوية لهذا الظلم، وذاك التحامل، ومع أني سبقته إلى فعل هذا الشيء نفسه (الذي انتقده) في كتابي «رحلات شاب مسلم» الذي نشرت طبعته الأولي في ١٩٨٨، فإنني لا أنكر أن حسين قدري، وأنني كذلك من قبله، كنا قاسيين، ومع هذا فلا أستطيع أن أنكر أن حسين قدري نجح في أن يجيد تصوير سبب متاعبه من هؤلاء إلى الحد الكفيل بدفع القارئ إلى التعاطف معه فيما يراه، بل ربما إلى تبني وجهة نظره التي أجاد عرضها:

وهو في معرض حديث عابر يجيد وصف مشاعره المتأففة من سلوك بعض الهنود في

هجرتهم إلى بريطانيا وفي موضع ثالث، فإن حسين قدري يعبر عن هذا المعني بطريقة مكثفة .ويتخذ حسين قدري من الزنوج جميعًا موقفًا مشابهًا لموقفه من الهنود، حتي إنه يصرح في إحدي فقراته بعدائه الشديد للزنوج،وربما نجد لحسين قدري بعض العذر في هذا الحكم حين نقرأ تصويره لمعاناته الظاهرة في إحدي قصص تعاملاته مع الزنوج، وفي هذا السياق تأتي قصة أخرى تتبدي فيها على الجانب الآخر، صورة الحكومة القوية صاحبة النظام المحكم الذي لا يسمح للأفراد بالتلاعب المريب مهما كانت قدرتهم على التلاعب، ومهما كان حجم اضطرارهم إلى هذا التلاعب.

(٦)

وعلى صعيد ثالث فإن حسين قدري يعبر عن ضيقه من اليهود بطريقة أخف من تعبيره عن ضيقه من الزنوج والهنود، وهو يروي قصة مثيرة حدثت له مع أحد زملائه اليهود، وقد أنقذه أحد الإنجليز، فساعده بطريقة ذكية على استرداد حقه الذي كاد يضيع، و يحفل كتاب حسين قدري بالحديث الدال على اختلاف الثقافات، وعلي ما يترتب على هذا الاختلاف من ثواب وعقاب، أو تقدير وتأليف، وانظر على سبيل المثال إلى هذه القصة المثيرة.

وقد حرص حسين قدري على أن يبدي اعتزازه بتاريخه العملي أو الوظيفي في لندن، وما أنجزه فيها من عمل مكنه من أن يصبح صاحب بيت فيها، وهو متيم إلى حد كبير بتكرار وصف شقته اللندنية وصفا جميلًا أخَّاذًا يدل على ما يمكن للمجتهد من البسطاء أن ينالوه بالعمل الجاد وحده.

ويتحدث حسين قدري حديثًا شائقًا وموحيًا ومنصفًا عن نظام التأجير والتمليك والصيانة في لندن كما يتحدث حسين قدري على سبيل المثال عن مسئولية الدولة الغربية الرأسمالية عن الإسكان

(٧)

ويحفل كتاب حسين قدري كذلك بالامتنان للعقلية الأوروبية التي تحرص على مساعدة الناس على الحياة، وعلي السعادة، وعلي سبيل المثال فإنه يروي قصة من قصص الرسائل الضائعة على نحو جميل يعطينا الأمل في حياة أكثر أمنا وسعادة مع الذين يقدرون الحياة والأحياء:

وفي إحدي رواياته العابرة عن مظاهر الحياة المضطربة في بلاد الإنجليز يستطرد حسين قدري إلى الحديث عن علاقة الجامعة في بريطانيا بطلابها (وهو الموضوع الذي تحدث عنه بإفاضة في كتاب آخر من كتبه هو «ليست لندن وحدها»)، لكنه هنا يشير إشارات مهمة .

ولا يخلو كتاب حسين قدري من تصوير بعض ما عاصره في لندن من أحداث مهمة، كذلك فإن حسين قدري يصور المناخ اللندني القاسي في إحدي ليالي الشتاء تصويرًا كفيلًا بإقناع السياح بالبعد عن لندن في مثل هذا الوقت من كل عام:

ويتوقف حسين قدري، ذات مرة، ليفكر في أمر شركات الأمن اللندنية، ومدي الإهمال والارتجالية (!!) الذي تمارس بهما مهامها.

(٨)

وأخيرًا فإن حسين قدري لا يبدي سعادته بكثير من المصريين الذين يظهرون في صورة الأصدقاء، وعلي صعيد الأشخاص ذوي الشهرة في لندن نجد حسين قدري لا يبدي ارتياحًا لمحمد الفايد المليونير المصري ولا لسيرته.

الفصل السابع والعشرون

عمرو هاشم ربيع والانتخابات البرلمانية

(١)

كنت -ولا أزال- أقول: إن للتغطية الصحفية مستويات متعددة ينبغى على الصحافة التى تريد أن تحافظ لنفسها على مكان تحت الشمس أن تبذل جهدها فيها جميعا.

وعلى سبيل المثال فإن التغطية الصحفية للانتخابات البرلمانية لا تقف عند حدود رصد توجهات الناخبين، وديناميات العملية الانتخابية فى الأيام أو الأسابيع التى تسبق المعركة، لكنها تمتد لتسجيل نتائج الانتخابات على النحو الذى لا يتاح إلا للصحافة، وعلى النحو الذى يقارن ويحلل ويرتب ويرصد ويستخلص النتائج، ويعبر عما استخلصه من حقائق فى عناوين، وجداول، وتعليقات صحفية، ويأتى بعد هذا مستوى أعمق، وأبعد نظرًا، وأطول نفسًا، وهو دراسة النظام الانتخابى وفعالياته وسلبياته وإيجابياته وعلاقاته بالحياة السياسية نفسها.

(٢)

وقد أدى «الأهرام» دوره مجتهدًا فى المستوى الأول، واستطاع أن ينافس عددًا آخر من الصحف فى المستوى الثانى، وإن كان «الأخبار» بفضل دأب ويقظة وحيوية الأستاذ خالد ميرى قد تفوق على الجميع، حين نجح فى أن يرسم صورة النتائج قبل أن يجلس المستشارون لإقرارها وحسابها، لكن «الأهرام» استطاع أن ينفرد بالمستوى الثالث حين

أصدر من خلال مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية كتابه الذى سبق له أن نشر مثله من قبل، وهو كتاب انتخابات مجلس الشعب ٢٠١١/ ٢٠١٢ بإشراف وتقديم وتحرير الصديق الكريم الدكتور عمرو هاشم ربيع.

ومن الحق أن نقول إن الدكتور عمرو قد أضفى على هذا الكتاب ما هو معروف به من سماحة النفس، والقدرة على الاستيعاب والاستنتاج والفهم والتحليل الموضوعي، كما أضفى هو وزملاؤه الأصدقاء أحمد عبد الحفيظ، وعبد الغفار شكر، ود. مازن حسن، ومحمد أبو ريدة، وهانئ رسلان، وياسر عبد العزيز، ود. يسرى العزباوى قدراتهم الذكية فى التعبير الجيد عن الحدث ومغزاه.

(٣)

وقد نجح الصديق عمرو هاشم فى التعبير عن كثير من آرائه السديدة فيما يتعلق بالأبعاد الدستورية والقانونية لانتخابات المجلس، ومن هذا بلورته الواضحة لانتقاده نظام حساب الأصوات الفائزة إلى حد أن قال:

«هذا هو نظامنا الانتخابى، الذى وضعه مشرعنا الكريم، وقد ورث بعضه من حقبة مبارك، وزاد على تعقيده تعقيدًا، وتلك هى قواعد الحساب».

«أدى تعقد قانون الانتخاب، بسبب تشابك قوانين مباشرة الحقوق السياسية ومجلس الشعب والدوائر الانتخابية، إلى لغط كبير فى حساب الأصوات الفائزة، ناهيك عن تعقد تلك العملية بشكل يصعب على فهم الكثيرين».

كذلك فإن الأستاذ أحمد عبد الحفيظ قد افتتح دراسته عن الإشراف القضائى بتأكيد حقيقة مهمة، حيث أشار إلى أن الإشراف القضائى ليس هو جوهر دور القضاء فى العملية الانتخابية، ولا هو أهم وظائفه فيها، ولهذا تنتقد القوى السياسية المصرية ما لهذا الإشراف من أهمية مبالغ فيها كضمانة لنزاهة وشفافية العملية الانتخابية.

وعلى العكس من ذلك يعتبر ميدان الطعون القضائية هو الميدان الأهم فى مجال استظهار التأثير القضائى على العملية الانتخابية، وفى إضاءة الطريق أمام الباحثين عن أشكال التداخل والتأثير المتبادل بين السلطات السياسية الثلاث فى النظام السياسى المصرى.

(٤)

وعلى الرغم من أننى كنت أطمع فى أن يتضمن هذا الكتاب عددًا أكبر من الجداول الكاشفة عن دراسات مقارنة، فإننى أثنى الثناء كله على دقة الجداول، وحسن عرضها، وإن كنت بالطبع أجد صعوبة فى قراءة الجداول العرضية حين تفرض نفسها بدون داع، كما أننى أتعجب من معلومة طريفة لا أظنها صائبة، إذ يستحيل أن تكون أصوات الإعادة هى نفسها أصوات الجولة الأولى فى انتخابات دائرة الإسكندرية الثانية، على نحو ما أبرزها جدولان متتاليان فى صفحة ٣٢٧، مع أن الواقع ليس كذلك.

وأغلب الظن أن الجدول الـمُعَنْون «الإعادة» ينبغى أن يحذف تماما، وأن يحل محله السطران الأولان اللذان جمعا على هيئة جدول بدون عنوان، وأن تعاد صياغة استنتاجات صفحة ٣٢٥ تبعا لهذا..

والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثامن والعشرون

أنا والسلطة والناس: رؤية جديدة

(١)

هذا كتاب فى الفكر السياسى والاجتماعى تريد صاحبته (أو مؤلفته) به أن تنبه الأذهان إلى خطأ كثير من المسلمات الحاكمة لآراء الناس فى السياسة والاجتماع على حد سواء، وهى لا تفعل هذا لمجرد النقد، لكنها تريد أن تبنى عند قراء كتابها أسلوبا جديدًا للتعامل مع حقائق المجتمع فى ضوء تجارب سابقة صهرت تجربة أبناء شعبها فى السنوات الأخيرة والعقود الماضية..

ولهذا السبب فإنها تضع لعناوين الفصول عناوين ذات معنى مؤكدة على أنها تقصد بها معانى استقرت فى أدبياتنا على نحو آخر، وعلى سبيل المثال فإنها تعنون المشهد الأول بقولها: مسئولون وسائلون، وترى فى هذا العنوان الجديد ما ينفى العناوين القديمة فى سطرين فتقول: «لا حاكمون ومحكمون» «أو طاحنون ومطحونون».

(٢)

تهز الأستاذة زينب مسلمات بدت أشجارًا سامقة فى فكر الذين يعانون من عسف المجتمع وتعنت الجماهير.

وعلى سبيل المثال فإنها تتناول مقولة شائعة من قبيل «المساواة فى الظلم عدل» فتقول عن هذه المسلمة: إنها مقولة تصلح لأى طاغية أو جبار اتخذ من الظلم سياسة ومنهجا

حتى يقنع الناس بأنه عادل عندما ظلمهم أجمعين، إلا بطانة اختصهم بفضله لا بعدله.. وهى سرعان ما تستدرك فتحذر هؤلاء الذين يمثلون البطانة المتمتعة بالأفضل، فتقول عنهم: «وهم دائما وأبدًا مرشحون للظلم إذا حادوا عن الطريق، أو صمتت ضمائرهم ولو للحظة واحدة».

وتعود لتتحدث عن فكرة أن المساواة فى الظلم عدل فتقول: إن فيها ما فيها من الظلم: «فهى للعقل إهانة وللآدمية إنكار وجحود، وكيف يكون فى الجحيم جنة أو فى الجنة سعير».

(٣)

بهذا الحس الإنسانى المرهف تتناول السيدة زينب حمزة الثورة المصرية فى ٢٠١١ تناولًا غير مباشر فتعمد إلى اللغة وتقول: إن اللغة العربية تميزت بالقدرة على مواجهة كل حدث وتسمية كل فعل ربما بكلمات مترادفة، وربما بلفظ واحد تسبق به كل فعل، وهى تقضى إلى التأسيس على هذه الفكرة بقولها: إن كلمة ثورة لا تطلق فحسب على ثورة شعب مقهور على حاكم ظالم ولا على غاصب محتل يأخذ من الأرض ما ليس فيه حق، وإنما صارت كلمة ثورة لفظًا نسبق به كل فعل وكل حركة.. فهذه ثورة إدارية تتمثل حسب رأى المؤلفة أو حسب سخريتها فى عدد من التصريحات النارية التى لاتكلف الوزير الجديد شيئا، لأنها طويلة مكررة تخرج من لسانه إلى مندوبى الصحافة والإعلام..

هكذا تبدو المؤلفة وكأنها ترد بطريقة غير مباشرة على الذين يستكثرون على ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وصف الثورة ويريدون أن يسموها هوجة أو انتفاضة أو حركة.. وهى تعبر عن إيمانها وشعورها تجاه الثورة بما لا يقبل الانتقاص من الثورة وقدرتها حتى وإن جادلت الذين لا يدركون جوانبها المختلفة، وهى تنتهى إلى القول بأن الجماهير تبقى كالعهد بها ثائرة هادئة كالبراكين يحركها قدر، ويطفئها قدر آخر «وهكذا تدخل ثورة ٢٥ يناير كما دخلت غيرها – مغارة التاريخ لتصبح تارة رعبًا يخافه الحكام، وتارة مثلًا يضرب كلما زاد طغيان الحكام على المحكومين، حتى تبلغ القلوب الحناجر، ولم يعد هناك بد ولا مفر من أن تشتعل نيران الثورة مرة أخرى».

(٤)

على هذا النحو الجميل تتناول السيدة زينب حمزة قضايا السلطة والعدالة والثورة والنفاق والمستقبل فى مصر المحاصرة بقلم حريص على التأنق والدقة، وفكر حريص على التأمل والجدة، حتى تصل إلى أن تختم كتابها بقولها «إن الأمل قادم من بعيد يحمل البشرى من جديد لهذا الشعب الطيب» وهى تردف بهذا قولها: إنها تكاد ترى الأمل وتكاد تراه يتحرك فى اتجاه مصرنا الحبيبة، وإن أبطأ الخطى أحيانًا..

وهى تقول: إن ثقتها تنبع من تأمين الله -سبحانه وتعالى- لهذه البلدة، وتقول أيضًا: إن الذى صان هذا النيل الحبيب من الدنس عبر آلاف السنين قادر على أن يعيد إليه عذوبته وتدفقه بإذن الله -سبحانه وتعالى.

(٦)

إنها تقول فى آخر سطورها: إن الله وحده قادر على أن يعيد الضحكة إلى وجوه طال انتظارها ولو لبسمة واحدة.

المحتويات

إهداء ٥

هذا الكتاب..... ٧

الباب الأول: مداخل غير تقليدية..... **٩**

الفصل الأول: الحرية والديمقراطية مرحلتان متتاليتان..... ١١

الفصل الثاني: البسطاء يفهمون أكثر..... ١٣

الفصل الثالث, منهجية العلم أفضل مداخل التفكير السياسي..... ١٧

الفصل الرابع: أخطر وباءات الديمقراطية : ظاهرة محامي الإجراءات..... ٢٦

الفصل الخامس: دلالات تكريم رموز الأدب فى المجتمع المصرى المعاصر..... ٢٨

الباب الثاني: تساؤلات كاشفة..... **٣٣**

الفصل السادس: وثيقة الأزهر: هل هي وثيقة كونفوشوسية؟..... ٣٤

الفصل السابع: مدى حاجة الثورة المصرية إلى ديستوفسكي..... ٣٦

الفصل الثامن: مرشحو الرياسة الدونكيشوتيون ٤٠

الفصل التاسع: هل الحاكم المستنير الذي نريده هو المأمون؟..... ٤٣

الباب الثالث: تصورات هاوية..... **٣٣**

الفصل العاشر: نموذج لتحديات الإصلاح الاقتصادي في البرنامج الانتخابي الرئاسي..... ٤٩

الفصل الحادي عشر: نموذج لتحديات التنمية الاجتماعية في البرنامج الانتخابي

الـــــــرئـــــــاسي.....٤٩
الفصل الثاني عشر: الحكومة الائتلافية التي كان ينبغي أن يشكلها الإخوان ٥١
الـفـصـل الـثـالـث عـشر: هـل غـاب الـقـضـاة لـلابـد عـن الـترشـيـح لـلانـتـخـابـات الـبرلمـانـيـة؟.....٥٣
الفصل الرابع عشر: كيف تزايد عدد أعضاء البرلمان المصري؟ ٥ ٥
الفصل الخامس عشر: نظامنا الانتخابى بعد الـثـورة.....٥٧
الفصل الـسـادس عـشر: أسـبـاب مستقبلية للحكم بعدم دستورية قانون الانتخابات الـبرلمـانـيـة.....٦٣
الفصل السابع عشر: نموذج للإخلال بالوحدة الوطنية ٧١
الباب الخامس: خبرات زعامية.....٧٥
الفصل الثامن عشر: كيف يتعامل الزعماء مع أسلافهم.....٧٦
الفصل التاسع عشر: الفارق بين زعامتين: عبدالناصر والبغدادى.....٨٨
الفصل العشرون: أمن الدولة لا يزال فوق الجميع.....٩٥
الباب السادس: كتابات منشورة فى زمن الثورة.....**١٠٣**
الفصل الواحد والعشرون: ماهر أبو العينين والقضاء الإدارى.....١٠٤
الفصل الثاني والعشرين: ليبرالى مسلم يكتب تجربته بامتياز.....١٠٧
الفصل الثالث والعشرون: الفريق الشاذلي العسكري الأبيض.....١١٠
الـفـصـل الـرابـع والـعـشرون: نهـضـة الـكـتـابـة الـتـاريخـيـة كتاب الدكتور أحمد زكريا الشلق.....١١٥
الفصل الخامس والعشرون: رحلة النسور الذهبية من النكسة إلى النصر.....١١٨
الفصل السادس والعشرون: مذكرات مهاجر مصري في لندن كتاب حسين قدري.١٢١
الفصل السابع والعشرون: عمر وهاشم ربيع والانتخابات البرلمانية.....١٢٦
الـفـصـل الـثـامـن والـعـشرون: أنـا والـسـلـطـة والـنـاس: رؤيـة جـديـدة.....١٣٤

تم بحمد الله

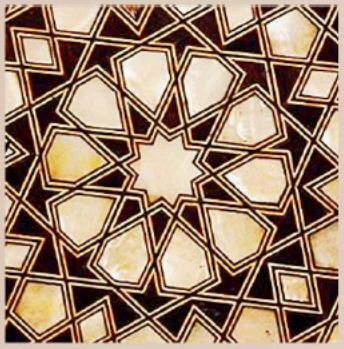

في هذا الكتاب نجتهد في أن نقدم للقارئ مجموعة من المقاربات غير التقليدية لقضايا التحول الديموقراطي التي ارتبطت بثورات الربيع العربي، وهي قضايا متعددة ومتشعبة، وقد بدا بعض القضايا في صور مستعصية على الفهم أحياناً ومستعصية على الحل أحياناً أخرى، ومستعصية على التوافق في بعض ثالث من الأحيان، وليس من شكٍ في أنه يمكن إرجاع كل هذه الصعوبات إلى التشوهات غير الديمقراطية والتشوهات غير المنطقية، ومن قبل هذه وتلك التشوهات «غير الإنسانية»، التي واكبت ثم لازمت فترات الحكم العسكري وديكتاتورياته المتواصلة.

وقد حاولت أن أناقش الصواب والباطل في هذه القضايا، من خلال مناهج مُتعددة، فلجأت ، على سبيل المثال ،إلى أسس التفكير العلمي وما تعنيه في الفكر الواسع من مفاهيم وممارسات التركيب والتحليل والتشريح والبحث العلمي كلاً على حدة، قاصداً بهذا تغدية العقلية العربية بدلالات أوسع لاصطلاحات شائعة يقتصر كُتابها على حصرها في مجالات محصورة كما يُخضعونها لسلطان نظرتهم، بينما هي مفاهيم انفتاحية بطبعها.

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

9 786257 895811